

بنتُ الصَّبَاغِ

المحتويات

٧	الفصل الأول
١١	الفصل الثاني
١٩	الفصل الثالث
٢٥	الفصل الرابع
٣٣	الفصل الخامس
٤٣	خاتمة القصة

الفصل الأول

(١) المُنْتَفِسَانِ

حَدَّثَ رَاوِي هَذِهِ الْقِصَّةِ — مُنْذُ مِائَاتٍ مِنَ السِّنِّينَ — أَنَّ طِفْلَيْنِ صَغِيرَيْنِ كَانَا فِي مِثْلِ سِنِّكَ وَذَكَائِكَ، عَاشَا فِي مَدِينَةِ «بَغْدَادَ» فِي مَنَزَلَيْنِ مُتْقَابِلَيْنِ، عَلَى نَهْرٍ «بِجَلَّةٍ».

وَقَدْ جَمَعَتْهُمَا مَدْرَسَةٌ وَاحِدَةٌ، كَمَا جَمَعَتْهُمَا حَيٌّ وَاحِدٌ، وَبَلَدٌ وَاحِدٌ، وَزَمَنٌ وَاحِدٌ.

وَكَانَ كِلَاهُمَا مُحِبًّا لِلدَّرْسِ مُقْبِلًا عَلَى الْعِلْمِ، لَا يُقْصِرُ فِي آدَاءِ وَاجِبِ مَدْرَسِيٍّ، وَلَا يَقَرُّ قَرَارُهُ أَوْ يَسْبِقُ لِدَاتِهِ وَأَثْرَابَهُ (أَي: الْأَوْلَادَ الَّذِينَ وُلِدُوا وَتَرَبَّوْا مَعَهُ)، وَيَبْدَأُ أَقْرَانَهُ وَأَصْحَابَهُ (أَي: يُفَوِّقُهُمْ وَيَغْلِبُهُمْ)، فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ، وَالِاسْتِزَادَةِ مِنْ فُنُونِ الثَّقَافَةِ، وَأَفَانِينَ الْمَعْرِفَةِ، أَي: أَسَالِيِبِهَا وَأَجْنَاسِهَا وَطُرُقِهَا.

(٢) بَيْنَ عَهْدَيْنِ

وَلَمْ تَنْقَطِعِ الْمُنَافَسَةُ بَيْنَهُمَا مُنْذُ طُفُولَتِهِمَا حَتَّى بَلَغَا سِنَّ الشَّبَابِ. وَلَمْ يَفْتَرُ مِنْهُمَا الْعَزْمُ، أَعْنِي: لَمْ تَسْكُنْ مِنْهُمَا الْهَمَّةُ بَعْدَ حِدَّتِهَا، وَلَمْ تَلْنِ مِنْهُمَا الْعَزِيمَةَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، بَلْ زَادَتْ فِي مَرَحَلَتِي الشَّبَابِ وَالْكُهُولَةِ، عَمَّا أَلْفَاهُ فِي زَمَنِ الطُّفُولَةِ.

وَقَدْ قُسِمَ لِأَحَدِهِمَا — وَهُوَ «أَبُو حَمَزَةَ عَلِيُّ بْنُ صَابِرٍ» — أَنْ يُعَيِّنَ أَمِيرَ شَرْطَةِ «بَغْدَادَ»، كَمَا قُسِمَ لِلْآخَرِ — وَهُوَ «أَبُو ثَعْلَبَةَ زِيَادُ بْنُ طَلْحَةَ» — أَنْ يُعَيِّنَ حَاكِمًا لَهَا.

(٣) الْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ

قُلْتُ لَكَ — أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ — إِنَّ هَذَيْنِ الطُّفْلَيْنِ كَانَ كِلَاهُمَا فِي مِثْلِ سِنَّكَ (أَي: عُمْرِكَ)، وَفِي مِثْلِ ذَكَائِكَ، وَلَمْ أَقُلْ إِنَّ كِلَيْهِمَا كَانَ فِي مِثْلِ آدَابِكَ وَأَخْلَاقِكَ. وَلَوْ قُلْتُ ذَلِكَ لَوَقَعْتُ فِي خَطَأٍ لَا يُعْتَفَرُ.

فَقَدْ كَانَ «أَبُو حَمْرَةَ» يَجْمَعُ — إِلَى ذَكَائِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى التَّحْصِيلِ — طِيبَةَ الْقَلْبِ وَطَهَارَةَ اللَّسَانِ، فَهُوَ أَشْبَهُ إِنْسَانٍ بِكَ، لِأَنَّهُ لَا يُفَكِّرُ إِلَّا فِي الْخَيْرِ، وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْ بَدَلِ الْمَعْرُوفِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ. وَكَانَ لَا يَخْطُرُ لَهُ الْأَدَى عَلَى بَالٍ، وَلَا يَجْزِي عَلَى الْإِسَاءَةِ بغيرِ الْإِحْسَانِ، فَلَقِبَ لِذَلِكَ بِـ«الْمَوْفِقِ».

أَمَّا «أَبُو ثَعْلَبَةَ» فَكَانَ — عَلَى الْعَكْسِ مِنْ صَاحِبِهِ — مِثَالًا لِلْخَادِعِ الدَّسَّاسِ، الْمَوْلَعِ بِالْكَيْدِ وَالْإِيقَاعِ بَيْنَ النَّاسِ، فَهُوَ لَا يُسَخَّرُ ذَكَاءَهُ وَفِطْنَتَهُ، وَعِلْمَهُ وَبِرَاعَتَهُ، فِي غَيْرِ الْإِسَاءَةِ وَالضَّرِّ، وَجَلْبِ الْأَذِيَّةِ وَالشَّرِّ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ عَارِفُوهُ لَقَبَ: «الْمُرَامِقِ». فَلَا تَعْجَبْ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ الْخِلَافَ قَدْ بَدَأَ يَدُبُّ بَيْنَهُمَا — مُنْذُ طُفُولَتِهِمَا — لِأَنَّ الْحَبِيثَ وَالطَّيِّبَ لَا يَسْتَوِيَانِ، وَالْمُسِيءَ وَالْمُحْسِنَ لَا يَأْتَلِفَانِ، وَالشَّرِيرَ وَالْخَيْرَ لَا يَتَّفِقَانِ، وَالْمُرَامِقَ وَالْمَوْفِقَ لَا يَجْتَمِعَانِ. وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَتَنَكَّرَ كِلَاهُمَا لِلْآخِرِ (أَي: يُصْبِحُ غَرِيبًا عَنْهُ)، فَلَا يَرْضَاهُ صَدِيقًا لَهُ وَصَاحِبًا.

(٤) عَزْلُ «الْمَوْفِقِ»

وَقَدْ ذَاعَتْ — بَيْنَ الْأَهْلِيْنَ — مُنَافَسَتُهُمَا فِي عَهْدِ الطُّفُولَةِ، وَخُصُومَتُهُمَا فِي زَمَنِ الشَّبَابِ وَالْكُهُولَةِ وَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِمَا عَرَفُوهُ مِنْ أَحْبَابِهِمَا، مُنْذُ اسْتَقْبَلَا أَيَّامَ الدَّرَاسَةِ الْأُولَى، إِلَى أَنْ بَلَغَا مَنْصَبِي إِمَارَةِ الشَّرْطَةِ وَحُكُومَةِ الْمَدِينَةِ. وَهُمَا مِنْ أَرْفَعِ الْمَنَاصِبِ الَّتِي يَنْطَلِعُ إِلَيْهَا سِرَاةُ الْقَوْمِ، أَي: أَشْرَافُهُمْ. وَمَا لَبِثْتُ دَسَائِسُ «الْمُرَامِقِ» أَنْ انْتَهَتْ بِإِقَالَةِ «الْمَوْفِقِ» (أَي: عَزَلَهُ) مِنْ مَنْصِبِهِ. وَلَمْ يَكُنْ نَجَاحَهُ فِي كَيْدِهِ وَمُؤَامَرَتِهِ شَافِيًا لِحَقْدِهِ وَحَزَازَتِهِ. وَالْحَزَازَةُ: وَجَعٌ فِي الْقَلْبِ مِنْ غَيْظٍ أَوْ حَسَدٍ.

(٥) عِصَابَةُ اللُّصُوصِ

لَقَدْ أَقْسَمَ «الْمُرَامِقُ»: لَيَقْفَنَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا عَلَى الكَيْدِ وَالإِسَاءَةِ إِلَى كُلِّ مَاجِدِ كَرِيمٍ، فَلَمَّا أُتِيحَتْ لَهُ فُرْصَةٌ جَدِيدَةٌ لِشِفَاءِ أَحْقَادِهِ مِنْ مُنَافِسِهِ «المَوْفِقِ» انْتَهَزَهَا، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّ التَّوْفِيقَ حَلِيفُهُ فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُ، (أعني: فِيمَا رَتَّبَهُ وَنَظَّمَهُ وَأَطَالَ التَّفَكِيرَ فِي عَاقِبَتِهِ). وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ البُغْيَ مَرْتَعُهُ وَخِيمٌ، وَأَنَّ عَلَى البَاغِي تَدُورُ الدَّوَائِرُ، (أَي: عَلَى الجَانِي تَنْزِلُ الدَّوَاهِي). كَانَ العَسَسُ (أَي: الحُفْرَاءُ) يَمْرُونَ — عَلَى عَادَتِهِمْ — فِي أَطْرَافِ «بَغْدَادَ» لَيْلًا، وَقَدْ أَرَبَتْ عِدَّتُهُمْ (أَي: زَادَ عَدَدُهُمْ) عَلَى العِشْرِينَ عَاسًا، وَالعَاسُ: هُوَ الحَفِيرُ الَّذِي يَطُوفُ لِيَحْرُسَ النَّاسَ لَيْلًا. وَمَا زَالَ العَسَسُ يَعْسُونَ، (أعني: يَطُوفُونَ بِاللَّيْلِ لِيَحْرُسُوا النَّاسَ وَيَكْشِفُوا أَهْلَ الرِّيْبَةِ)، حَتَّى بَلَّغُوا مَنطَقَةَ المَقَابِرِ، فَسَمِعُوا أَصْوَاتًا قَرِيبَةً مِنْهُمْ، فَأَنْصَتُوا،



(أَي: سَكْتُوا مُسْتَمِعِينَ لَهَا) فَأَدْرَكُوا أَنَّ عِصَابَةَ (أَي: جَمَاعَةَ) مِنَ اللُّصُوصِ، تَقْصُّ أَحْبَارَ يَوْمِهَا، وَتَرَسُّمُ بَرْنَامَجِ غَدِهَا.

(٦) الْفَتَى الْغَرِيبُ

وَقَدْ سَمِعَ الْعَسَسُ صَوْتَ شَيْخِ اللُّصُوصِ وَهُوَ يُحَاوِرُ (أَي: يُنَاقِشُ) فَتَى غَرِيبًا، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَشْرَكَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ، وَيَنْدِمَجُ فِي زُمْرَتِهِمْ، (أَي: يَنْضَمُّ إِلَى عِصَابَتِهِمْ). وَرَأَوُا الْفَتَى حَائِرًا لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُجِيبُ، وَقَدْ انْعَقَدَ لِسَانُهُ مِنَ الْخَوْفِ. وَسَمِعُوا شَيْخَ اللُّصُوصِ يُعِيدُ سُؤَالَهُ، وَقَدْ غَاطَهُ مِنَ الْفَتَى صَمْتُهُ وَتَرَدَّدُهُ، فَاقْتَحَمَ الْعَسَسُ عَلَيْهِمُ الْمَقْبَرَةَ الَّتِي كَانُوا يَخْتَبِئُونَ فِيهَا. وَقَبَضُوا عَلَى الْعِصَابَةِ وَشَيْخِهَا، وَسَاقُوا الْفَتَى الْغَرِيبَ مَعَهُمْ، ثُمَّ زَجُّوا بِهِمْ فِي السَّجْنِ، حَيْثُ قَضُوا بَقِيَّةَ اللَّيْلِ إِلَى الصَّبَاحِ.

(٧) بَيْنَ يَدَيِ الْحَاكِمِ

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّالِي مَتَلَّتِ الْعِصَابَةُ بَيْنَ يَدَيِ «الْمُرَامِقِ». وَلَمَّا سَأَلَ اللُّصُوصَ عَنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ لَمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِجَرَائِمِهِمْ، بَعْدَ أَنْ كُشِفَ أَمْرُهُمْ، وَأَصْبَحَ الْإِنْكَارُ لَا يُجْدِيهِمْ شَيْئًا. وَلَمَّا جَاءَ دَوْرُ الْفَتَى الْغَرِيبِ، عَرَفَ «الْمُرَامِقُ» — مِنْ حَدِيثِهِ، وَمِمَّا سَمِعَهُ الْعَسَسُ مِنْ حِوَارِهِ أَمْسٍ — أَنَّهُ غَرِيبٌ لَا صِلَةَ لَهُ بِاللُّصُوصِ. فَأَصْدَرَ أَمْرَهُ بِتَبْرِئْتِهِ، بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِزَجِّ اللُّصُوصِ فِي السَّجْنِ، حَتَّى يُنْفَذَ قَضَاءُهُ فِيهِمْ بَعْدَ حِينٍ.



الفصل الثاني

(١) «فَضْلُ اللَّهِ»

ثُمَّ انْتَحَى «الْمُرَامِقُ» بِالْفَتَى نَاحِيَةً، وَسَأَلَهُ عَنِ اسْمِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُسَمَّى: «فَضْلَ اللَّهِ». فَقَالَ لَهُ «الْمُرَامِقُ»: «يَبْدُو (أَيُّ: يَظْهَرُ) لِي — مِنْ مَنْظَرِكَ وَغَرَابَةِ زِيكِ (أَيُّ: هَيْئَتِكَ) — أَنَّكَ ضَيْفٌ قَادِمٌ عَلَى «بَغْدَادَ»، مُنْذُ زَمَنٍ قَلِيلٍ». فَقَالَ لَهُ الْفَتَى: «صَدَقْتَ — يَا سَيِّدِي — فَأَنَا مِنْ سُكَّانِ «الْمَوْصِلِ». وَقَدْ وَصَلْتُ أَمْسَ إِلَى «بَغْدَادَ»، وَلَمْ أَرَهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَا عَرَفْتُ فِيهَا أَحَدًا.»

(٢) جَارِيَةٌ «الْمَوْفِقُ»

وَقَدْ كَادَ الْجُوعُ يَقْتُلُنِي، فَجَلَسْتُ بِجِوَارِ قَصْرِ فَاخِرٍ لِرَجُلٍ مِنْ سَرَاةِ «بَغْدَادَ»، اسْمُهُ «السَّيِّدُ الْمَوْفِقُ»، فَمَرَّتْ بِي جَارِيَةٌ عَجُوزٌ مِنْ جِوَارِي الْقَصْرِ، وَرَأَتْ مَا يَبْدُو عَلَى وَجْهِهَا مِنَ الْإِعْيَاءِ (أَيُّ: الْكِلَالِ وَالتَّعَبِ) وَالْحِيَاءِ، فَأَدْرَكْتُ مَا يَجُولُ بِخَاطِرِي، فَرَجَعْتُ إِلَى الْقَصْرِ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَيَّ — بَعْدَ قَلِيلٍ — بِشَيْءٍ مِنَ الزَّادِ أَمْسَكْتُ بِهِ الرَّمَقَ، أَعْنِي: حَفِظْتُ بِهِ مَا بَقِيَ فِي جِسْمِي مِنْ حَيَاةٍ، بَعْدَ أَنْ أَشْرَفْتُ عَلَى التَّلْفِ، وَكَدْتُ أَهْلِكَ مِنَ الْجُوعِ.

(٣) بَيْنَ الْمَقَابِرِ

وَلَمَّا جَاءَ الْمَسَاءَ لَمْ أَجِدْ مَكَانًا آوِي إِلَيْهِ غَيْرَ الْمَقَابِرِ، فَاضْطَجَعْتُ إِلَى جَانِبِ قَبْرِ مَنْ الْقُبُورِ، وَتَوَسَّدْتُ صَخْرَةً مِنَ الصُّخُورِ، أَيُّ: جَعَلْتُهَا تَحْتِ رَأْسِي، فَأَخَذْتَنِي سِنَّةٌ خَفِيفَةٌ مِنَ النَّوْمِ، ثُمَّ أَيَقْظُنِّي جَلْبَةٌ وَضَوْضَاءٌ بِالْقُرْبِ مِنِّي، فَنهَضْتُ مُفْزَعًا وَجَلًّا، (أَيُّ: شَدِيدَ الْخَوْفِ). وَحَاوَلْتُ أَنْ أَهْرَبَ، فَلَقِيتُ أَمَامِي رَجُلَيْنِ، فَاسْتَوْقَفَانِي، وَسَأَلَانِي: مَنْ أَنَا؟ وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ؟ فَقُلْتُ لَهُمَا: «إِنِّي غَرِيبٌ لَا مَأْوَى لِي وَلَا زَادَ عِنْدِي. وَلَمْ أَجِدْ فِي الْمَدِينَةِ مَوْئِلًا، (أَيُّ: مَكَانًا أَلْجَأُ إِلَيْهِ)، فَجِئْتُ إِلَى الْقُبُورِ أَتَلَمَّسُ النَّوْمَ فِيهَا.» فَقَالَ لِي أَحَدُهُمَا: «أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْفُرْصَةِ السَّعِيدَةِ، فَقَدْ وَجَدْتَ مَنْ يُعْنَى بِأَمْرِكَ، وَيُهَيِّئُ لَكَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ ثِيَابٍ وَطَعَامٍ.»

ثُمَّ سَارَا بِي حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى قَبْرِ كَبِيرٍ، فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ رِفَاقِهِمَا كَانُوا يَأْكُلُونَ أَشْهَى أَلْوَانِ الطَّعَامِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ لُصُوصٌ، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَقْبَرَةَ مَخْبُوءُهُمْ. ثُمَّ حَقَّقَ ظَنِّي مَا سَمِعْتُهُ مِنْ مَنَاقِشَتِهِمْ؛ فَقَدْ بَدَءُوا يَتَحَدَّثُونَ عَمَّا سَرَقُوهُ فِي يَوْمِهِمْ، وَمَا اعْتَرَمُوا سَرَقَتَهُ فِي غَدِهِمْ، (أَيُّ: فِي يَوْمِهِمُ التَّالِي).

(٤) غَيْظُ اللَّصُوصِ

وَعَرَضُوا عَلَيَّ أَنْ أَشْرَكَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ، وَأَنْدِمَجَ فِي زُمْرَتِهِمْ، فَارْتَبَيْتُ وَخَشَيْتُ أَنْ أُرْفَضَ رَأْيُهُمْ فَأَغْضَبَهُمْ، وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أُوَفِّقَهُمْ عَلَى السَّرِقَةِ، لِأَنِّي رَجُلٌ شَرِيفٌ، مَهْمَا يَقْسُ عَلَيَّ الزَّمَنُ فَلَنْ أُبِيحَ لِنَفْسِي أَنْ أَكُونَ أَفَاقًا، أَعْنِي: طَرِيدًا ضَارِبًا فِي الْأَفَاقِ، وَصُعْلُوكًا مُكْتَسِبًا لَا مَوْطِنَ لَهُ، يَذْهَبُ فِي بِلَادِ الدُّنْيَا مُتَنَقِّلًا مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ.

(٥) قُدُومُ الْعَسَسِ

وَأَنْعَقَدَ لِسَانِي فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ أُجِيبُهُمْ، فَأَعَادُوا عَلَيَّ السُّؤَالَ، فَاسْتَدَّ ارْتِبَاكِي وَفَزَعِي. وَبَدَا عَلَى وُجُوهِهِمُ الْغَيْظُ وَالْأَلَمُ، لِمَا رَأَوْهُ مِنْ تَرَدُّدِي وَإِحْجَامِي.

وَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ أَتَاكَ (أَيُّ: هَيَّا) لِي اللَّهُ فُرْصَةً نَادِرَةً لِلْخَلَاصِ مِنْ هَذَا الْمَازِقِ، (أَيُّ: الْمَضِيْق). فَقَدْ دَهَمْنَا الْعَسَسُ، (أَيُّ: أَحَاطُوا بِنَا) حِينَنِيذٍ وَخَلَّصُونِي مِنْ أَدْبِيْتِهِمْ وَشَرِّهِمْ، وَآتَاخُوا لِي فُرْصَةً سَعِيدَةً لِلْمُنْوَلِ (أَيُّ: الْوُقُوفِ) بَيْنَ يَدَيْكَ.»

(٦) فَضْلُ الصَّمْتِ

وَلَمْ يَكِدِ «الْمُرَامِقُ» يَسْتَمِعُ إِلَى قِصَّةِ «فَضْلِ اللَّهِ» حَتَّى عَنَّ لَهُ خَاطِرُ حَبِيْثٍ، يُحَقِّقُ مَا يَبْنَعِي مِنَ الْكَيْدِ لِحُصْمِهِ اللَّوْدِ «السَّيِّدِ الْمُؤَفَّقِ». وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ، أَعْنِي: مِنْ حُسْنِ حَظِّ «السَّيِّدِ الْمُؤَفَّقِ»، أَنَّ «الْمُرَامِقَ» الْحَبِيْثَ قَدْ عَرَفَ مِنْ قِصَّةِ «فَضْلِ اللَّهِ» بَعْضَهَا، وَجَهَلَ بَاقِيَهَا، لِأَنَّ «فَضَلَ اللَّهِ» لَمْ يُخْبِرْهُ بِقِصَّتِهِ كُلِّهَا، بَلِ اجْتَرَأَ مِنْهَا بِمَا يُبْرِئُهُ مِنْ تَهْمَةِ السَّرِقَةِ، وَلَمْ يَجِدْ حَاجَةً لِلْإِفْضَاءِ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ عَنْهُ، مُتَّبِعًا فِي ذَلِكَ الْحِكْمَةَ الذَّهَبِيَّةَ الْمَأْثُورَةَ: «إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فِضَّةٍ، كَانَ السُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ.» مُهْتَدِيًّا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ الْقَدِيمِ:

مَتَّ بَدَاءِ الصَّمْتِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ
إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ أَلْجَمَ فَاهُ بِلِجَامِ

وَلَوْ عَرَفَ الْحَاكِمُ قِصَّةَ «فَضْلِ اللَّهِ» كُلَّهَا لَمَا وَقَعَتْ حَوَادِثُ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيْبَةِ. وَلَوْ قَفَّتْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، وَانْتَهَتْ بِتَبْرِئِهِ «فَضَلَ اللَّهِ» مِنْ تَهْمَةِ السَّرِقَةِ. وَلَوْ تَمَّ ذَلِكَ لَأُلْحِقَتْ بِأَمْثَالِهَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَنْبَاءِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي تَسْمَعُ أَمْثَالَهَا فِي الصُّحُفِ، ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَنْسَاهَا عَقِبَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ قِرَائَتِهَا.

(٧) فِكْرَةٌ جَرِيئَةٌ

وَقَدْ أَطَالَ «الْمُرَامِقُ» تَفْكِيرَهُ حِينَ حَدَّثَهُ «فَضَلَ اللَّهِ» أَنَّهُ قَدْ جَلَسَ أَمَامَ قَصْرِ «الْمُؤَفَّقِ». وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ أَحْبَبْتِكَ — فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ — بِمِقْدَارِ مَا كَانَ يَحْمِلُهُ لَهُ مِنْ حِقْدٍ وَحَسَدٍ. ثُمَّ لَمَعَ عَلَى أَسَارِيرِ «أَبِي ثَعْلَبَةَ» بَرِيْقٌ عَجِيْبٌ، لَوْ رَأَيْتَهُ — أَيُّهَا الصَّغِيْرُ الْعَزِيْزُ — لَعَلِمْتَ أَنَّهُ قَدْ اهْتَدَى إِلَى فِكْرَةٍ مُؤَفَّقَةٍ، طَالَ بَحْثُهَا عَنْهَا، اسْتَعْفِرَ اللَّهُ، بَلِ هِيَ فِكْرَةٌ خَاطِئَةٌ غَيْرُ مُؤَفَّقَةٍ، لَوْ أَنَّهُ عَقَلَ لَتَمَنَّى أَنْ يَضِلَّ عَنْهَا، فَلَا يَهْتَدِيَ إِلَيْهَا أَبَدًا. قَالَ «الْمُرَامِقُ» لِلْفَتَى

«فَضِلْ اللهُ»، فِي لَهْجَةٍ تَفِيضُ بِشْرًا وَحَنَانًا (أَي: سُورًا وَرَحْمَةً): «إِنَّ لِلسَّيِّدِ «المَوْفِقِ» فَتَاهَ مَعْرُوفَةً بِرَجَاحَةِ العَقْلِ، وَجَمَالِ الخُلُقِ. وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ حُسْنِ أَدَبِكَ مَا أَقْنَعَنِي بِكْرَمِ عُنُصْرِكَ، وَطَيِّبِ أَصْلِكَ. وَلَسْتُ أَرَى أَحَدًا أَحَقَّ مِنْكَ بِزَوَاجِهَا، فَكَيْفَ تَقُولُ؟»

(٨) دَهْشَةُ «فَضِلْ اللهُ»

فَدَهَشَ «فَضِلْ اللهُ» مِمَّا قَالَهُ «المُرَامِقُ»، وَعَجِبَ مِنْ طَيِّبَةِ قَلْبِهِ، وَكَذَّبَ مَا كَانَ يَسْمَعُهُ — مِنْ قَبْلِ قُدُومِهِ إِلَى «بَغْدَادِ» — مِنَ الشَّوَائِعِ (أَي: الأَخْبَارِ الذَّائِعَةِ)، عَنْ لَوْمِ «المُرَامِقِ» وَحُبِّ نَبِيِّهِ. وَأَعْجَبَ بِذِكَائِهِ وَبُعْدِ نَظَرِهِ، لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ — بِمَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ فِطْنَةٍ — أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى سِرِّهِ، وَيَتَعَرَّفَ مَا كَانَ يَجُولُ بِخَاطِرِهِ.

وَقَالَ «فَضِلْ اللهُ» فِي نَفْسِهِ: «لَقَدْ حَرَجْتُ مِنْ بَلَدِي وَأَنَا عَارِضٌ عَلَى الزَّوْجِ بِهَذِهِ الْفَتَاةِ، وَلَكِنَّ قُطَاعَ الطَّرِيقِ سَلَبُونِي كُلَّ مَا أُمَلِّكُ، وَلَمْ يَتْرُكُوا لِي إِلَّا أَسْمَالَ، (أَي: ثِيَابًا خَلَقَهَا بِالْيَدِ)، فَخَجَلْتُ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى أَبِيهَا وَأَنَا بِهَذِهِ الْحَالِ الْمُزْرِيَةِ. وَكَأَنَّمَا أَلْهَمَ اللهُ — سُحْبَانَهُ — هَذَا الرَّجُلَ الْكَرِيمَ أَنْ يَقْرَأَ مَا دَارَ بِخَاطِرِي مِنَ الْأَفْكَارِ، فَمَا أَسْعَدَنِي بِهِ، وَمَا أَعْظَمَ تَوْفِيقِي بِلِقَائِهِ، أَي: بِلِقَائِهِ.»

وَقَدْ شَكَرَ «فَضِلْ اللهُ» لِلْمُرَامِقِ صَنِيعَهُ (أَي: مَعْرُوفَهُ)، وَعَجِبَ مِمَّا رَأَى. وَلَمْ يَكُنْ يَدُورُ بِخَاطِرِهِ حَقِيقَةُ مَا يَفْكُرُ فِيهِ. وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَمَرَ «المُرَامِقُ» بَعْضَ خَدَمِهِ أَنْ يَذْهَبَ بِالْفَتَى «فَضِلْ اللهُ» إِلَى الْحَمَامِ.

(٩) دَهَاءُ «المُرَامِقِ»

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى «السَّيِّدِ المَوْفِقِ» يَدْعُوهُ إِلَى دَارِهِ لِيُفْضِيَ إِلَيْهِ بِأَمْرِ خَطِيرٍ، فَجَاءَ «المَوْفِقُ» عَلَى عَجَلٍ (أَي: مُسْرِعًا). وَمَا كَادَ «المُرَامِقُ» يَرَاهُ، حَتَّى أَسْرَعَ إِلَى لُقْيَاهُ. وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يُقَبِّلُهُ وَيُعَانِقُهُ، وَيَتَظَاهَرُ بِالْإِخْلَاصِ وَالْمُودَةِ لَهُ؛ فَدَهَشَ «السَّيِّدُ المَوْفِقُ» لِمَا رَأَى، وَعَجِبَ مِنْ تِلْكَ الحَفَاوَةِ الَّتِي لَمْ يَأْلِفْهَا مِنْ «المُرَامِقِ». وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ طُولَ عُمُرِهِ إِلَّا حَصْمًا لَدُودًا، لَا يَكْفُ عَنْ إِيْذَانِهِ وَالْكَيْدِ لَهُ — مُنْذُ الطُّفُولَةِ — كُلَّمَا أَمَكَّنَتْهُ الفُرْصَةُ، فَأَدْرَكَ «المَوْفِقُ» أَنَّ فِي الأَمْرِ سِرًّا يُحَاوَلُ صَاحِبُهُ جُهْدَهُ أَنْ يُخْفِيَهُ عَنْهُ.

(١٠) مُصَاهَرَةُ الْأَمِيرِ

وَلَكِنَّ صَاحِبَهُ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ مَجَالًا لِلتَّفَكِيرِ وَالشَّكِّ فِي أَمْرِهِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ قَائِلًا: «لَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ - يَا «أَبَا حَمْرَةَ» - أَلَّا يَطُولَ أَمْدُ عَدَائِنَا (أَيُّ: زَمَنُ عَدَاوَتِنَا)، فَاتَّاحَ لَنَا فُرْصَةً نَادِرَةً نَحْمَدُ (أَيُّ: نُطْفِئُ) فِيهَا شُعْلَةَ أَحْقَادِنَا، وَنَضَعُ حَدًّا لِتِلْكَ الْخُصُومَةِ الَّتِي ابْتَلَى (أَيُّ: امْتَحَنَ) اللَّهُ بِهَا قَلْبَيْنَا، وَأَشْفَى بِهَا نَفْسَيْنَا». فَسَأَلَهُ «السَّيِّدُ الْمُؤَفَّقُ»: «وَمَاذَا جَدَّ عِنْدَكَ مِنَ الْأَنْبَاءِ أَيُّ: الْأَخْبَارِ؟» فَقَالَ لَهُ «الْمُرَامِقُ» فِي لَهَجَةِ حَبِيبَتِهِ، وَهُوَ يَتَظَاهَرُ بِالْجِدِّ وَالْإِخْلَاصِ: «لَقَدْ وَقَدَّ عَلَيَّ أَمْسُ الْأَمِيرِ «فَضَّلَ اللَّهُ» أَمِيرُ «الْمُؤَصِّلِ»، وَحَلَّ فِي ضِيَاغِي. وَهُوَ عَازِمٌ عَلَى الزَّوْجِ بِابْنَتِكَ، الَّتِي اشْتَهَرَ جَمَالُهَا وَفَضْلُهَا وَذَكَوُّهَا فِي جَمِيعِ الْأَفَاقِ. وَلَمْ يَكْدُ يُفَاتِحُنِي فِي ذَلِكَ، حَتَّى رَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لَاسْتِجْلَابِ الْوَدِّ وَالصَّفَاءِ بَيْنَنَا، وَإِحْلَالِ الْمَحَبَّةِ وَالْوَلَاءِ، مَحَلَّ الْقَطِيعَةِ وَالْجَفَاءِ.»

(١١) فَرَحُ «الْمُؤَفَّقِ»

فَقَالَ لَهُ «السَّيِّدُ الْمُؤَفَّقُ»، وَقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ بِهَجَّةٍ وَحُبُورًا، بِهَذِهِ الْبُشْرَى السَّعِيدَةِ: «سَدَّ مَا أَدْهَشَنِي هَذَا النَّبَأُ السَّارُّ! فَإِنَّ مِنَ الْعَجِيبِ حَقًّا أَنْ يُفَكِّرَ أَمِيرُ «الْمُؤَصِّلِ» فِي الزَّوْجِ بِابْنَتِي «زُمْرَد»، وَأَنْ يَجِيءَ هَذَا الْخَيْرُ الْعَمِيمُ عَلَى يَدَيْكَ أَنْتَ، بَعْدَ أَنْ وَقَفْتَ حَيَاتَكَ كُلَّهَا عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيَّ وَالْإِضْرَارِ بِي.» فَقَالَ «الْمُرَامِقُ»: «لَا حَاجَةَ إِلَى اسْتِثَارَةِ الْأَحْقَادِ وَنَبِشِ ذِكْرِيَاةِ الْمَاضِي الْمَوْلَمَةِ يَا «أَبَا حَمْرَةَ»، فَلَيْسَ يَخْلُقُ بِكْرِيمٍ مِثْلِكَ أَنْ يَذُكَّرَ الْإِسَاءَةَ، بَعْدَ أَنْ سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِلتَّكْفِيرِ عَنْهَا. وَسَيَكُونُ زَوْجُ الْأَمِيرِ بِابْنَتِكَ فَاتِحَةً عَهْدِ الصَّدَاقَةِ وَالْإِحْيَاءِ الْجَدِيدِ بَيْنَنَا، وَخَاتِمَةً عَهْدِ الْمَشَاكَسَةِ الْبَائِدِ الَّذِي لَا عُدَّةَ لَهُ وَلَا رَجْعَةَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَعْتَمِدَ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةَ السَّعِيدَةَ فَنَتَعَاهَدَ عَلَى الْمَوَدَّةِ وَالْإِحْيَاءِ، وَنُقَسِّمَ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالْوَفَاءِ.» وَكَانَ «السَّيِّدُ الْمُؤَفَّقُ» طَيِّبَ الْقَلْبِ، فَانْخَدَعَ بِكَلَامِ «الْمُرَامِقِ»، وَنَسِيَ قَدِيمَ حَسَدِهِ لَهُ، وَسَابِقَ حِقْدِهِ عَلَيْهِ، فَقَامَ يُعَانِقُهُ وَيُعَاهِدُهُ مُخْلِصًا عَلَى الصَّفَاءِ.

(١٢) لِقَاءُ الْأَمِيرِ

وَمَا عَادَ «فَضْلُ اللَّهِ» مِنَ الْحَمَامِ أَنْدَحَلَهُ الْخَادِمُ غُرْفَةَ الْأَسْتِقبَالِ بَعْدَ أَنْ أَلْبَسَهُ أَفْحَرَ النَّيَابِ.
وَمَا كَادَ يَرَاهُ «الْمُرَامِقُ» حَتَّى صَاخَ مُتَظَاهِرًا بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ: «عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ
قَدِمْتَ (أَي: جِئْتَ) أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْكَرِيمُ. لَقَدْ شَرَفْتُ بِكَ «بُعْدَادُ»، وَأَعْلَيْتَ مِنْ قَدْرِ دَارِي،
بَعْدَ أَنْ تَنَزَّلْتَ فَرَضِيَّتَهَا دَارًا لَكَ وَمَقَامًا. وَلَقَدْ — وَاللَّهِ — أَعَجَزْتَنِي عَنْ أَنْ أَشْكُرَ لَكَ
هَذَا الشَّرْفَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَوْلَيْتَنِيهِ. وَلَيْسَ فَرَحُ «السَّيِّدِ الْمُؤَفَّقِ» بِأَقْلَ مِنْ فَرَجِي بِمَقْدَمِكَ
السَّعِيدِ. وَقَدْ عَدَّ رَغْبَتَكَ فِي الزَّوْجِ بِابْنَتِهِ شَرَفًا لَا يُدَانِيهِ شَرَفٌ. وَرَأَى فِي مُصَاهَرَةِ الْأَمِيرِ
«فَضْلُ اللَّهِ» فُرْصَةً لَهُ عَزِيزَةَ الْمَنَالِ.» فَقَامَ «السَّيِّدُ الْمُؤَفَّقُ» يَشْكُرُ لِلْأَمِيرِ «فَضْلُ اللَّهِ»
تَنَزُّلَهُ بِقَبُولِ ابْنَتِهِ زَوْجًا لَهُ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: «شَدَّ مَا أَحْجَلْتَنِي — يَا سَيِّدِي الْأَمِيرَ —
وَمَلَأْتَ نَفْسِي فَرَحًا وَسُرُورًا بِهَذَا الشَّرْفِ الَّذِي تَفَضَّلْتَ بِهِ عَلَيَّ، إِذَا طَلَبْتَ الزَّوْجَ بِابْنَتِي.
وَلَكِنْ نَسَى لَكَ — طُولَ حَيَاتِنَا — هَذَا الصَّنِيعَ.» فَتَحَيَّرَ «فَضْلُ اللَّهِ»، وَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقُولُ؟
وَأَنعَقَدَ لِسَانَهُ عَنِ الْكَلَامِ، فَانْتَفَى بِرَدِّ تَحِيَّةِ «السَّيِّدِ الْمُؤَفَّقِ». وَحَشِيَ «الْمُرَامِقُ» أَنْ يَظْهَرَ
الاضْطِرَابَ عَلَى صَاحِبِهِ، فَيَرْتَابَ «الْمُؤَفَّقُ» فِيمَا حَدَّثَهُ بِهِ.

(١٣) زَوْجُ الْأَمِيرِ

فَالْتَفَتَ «الْمُرَامِقُ» إِلَى «فَضْلِ اللَّهِ» قَائِلًا: «أَرْجُو أَنْ تُضَيِّفَ إِلَيَّ أَفْضَالَكَ الْجَمِيلَةَ — يَا
سَيِّدِي الْأَمِيرَ — فَضْلًا جَدِيدًا، فَتَقْبَلَ أَنْ يَبِيَّ عَقْدُ زَوْجِكَ فِي دَارِي.» وَلَمْ يَنْتَظِرِ «الْمُرَامِقُ»
مُؤَافَقَةً أَحَدٍ، بَلْ أَسْرَعَ — مِنْ قَوْرِهِ — فَأَمَرَ غُلْمَانَهُ بِأَحْضَارِ الشُّهُودِ. ثُمَّ كَتَبَ بِيَدِهِ عَقْدَ
الزَّوْجِ، وَتَلَاهُ — بَعْدَ كِتَابَتِهِ — عَلَى الشُّهُودِ الَّذِينَ أَحْضَرَهُمْ.
ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى «السَّيِّدِ الْمُؤَفَّقِ» بِاسْمًا وَقَالَ: «لَقَدْ أَتَمَّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ يَا «أَبَا حَمْرَةَ»،
فَاذْهَبْ مَعَ صَهْرِكَ الْأَمِيرِ إِلَى بَيْتِكَ، وَأَنْعَمْ بِهَذَا الشَّرْفِ الْعَظِيمِ الَّذِي سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَأَنْتَ
جَدِيرٌ بِهِ، أَي: مُسْتَحِقٌّ لَهُ.»

فَشَكَرَ لَهُ كِلَاهُمَا صَنِيعَهُ (أَي: مَعْرُوفَهُ)، وَخَرَجَا مِنْ بَيْتِهِ، وَرَكِبَا بَعْلَيْنِ فَاحْرَيْنِ
كَانَا فِي انْتِظَارِهِمَا، ثُمَّ وَدَّعَا «أَبَا تَعْلَبَةَ الْمُرَامِقِ» وَمَا زَالَا سَائِرَيْنِ حَتَّى بَلَغَا الْقَصْرَ.

(١٤) بِنْتُ «المَوْقِقِ»

ثُمَّ صَعِدَا إِلَى غُرْفَةِ الْأَسْتِقْبَالِ، وَاسْتَدْعَى «السَّيِّدُ الْمَوْقِقُ» ابْنَتَهُ، وَأَخْبَرَهَا بِمَا تَمَّ، فَأَقْرَتْ أَبَاهَا عَلَى مَا فَعَلَ. وَعَلِمَ كُلُّ مَنْ فِي الْقَصْرِ بِزَوْاجِ «زُمْرَدَ» بِنْتِ «أَبِي حَمْرَةَ الْمَوْقِقِ» بِالْأَمِيرِ «فَضْلِ اللَّهِ»، فَاسْتَوَى عَلَيْهِمُ الْفَرْحُ وَالسُّرُورُ.



وَقَدِ ابْتَهَجَ الْعَرُوسَانِ، وَحَمِدَا اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — عَلَى مَا كَتَبَ لَهُمَا مِنْ تَوْفِيقٍ، فَقَدْ رَأَى كُلُّ مَنْهُمَا فِي شَمَاثِلِ صَاحِبِهِ وَحَدِيثِهِ مِثَالًا رَائِعًا لِرِجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَكَمَالِ الْخُلُقِ، وَسَعَةِ الْأَفْقِ، فَشَكَرَا لِلَّهِ مَا يَسَّرَهُ لَهُمَا مِنْ سَعَادَةٍ وَتَوْفِيقٍ.



الفصل الثالث

(١) هَدِيَّةُ «الْمُرَامِقِ»

وَمَا كَادَتْ تُشْرِقُ شَمْسُ الْيَوْمِ التَّالِي حَتَّى سَمِعَا طَرْقًا بِالْبَابِ، فَذَهَبَ «فَضْلُ اللَّهِ» لِيَتَعَرَّفَ مِنَ الطَّارِقِ؟ فَرَأَى زَنْجِيًّا مَدِيدَ الْقَامَةِ (أَي: طَوِيلَ الْقَدِّ) يَحْمِلُ رِيْطَةً (أَي: مَلَاءَةً) كَبِيرَةً، فِيهَا ثِيَابٌ، فَتَوَهَّم «فَضْلُ اللَّهِ» أَنَّ «الْمُرَامِقِ» أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ يُعْبَرُ بِهَا عَنْ سُورِهِ وَتَهْنِئَتِهِ بِزَوَاجِهِ السَّعِيدِ الَّذِي تَمَّ عَلَى يَدَيْهِ. وَلَكِنَّ فَرَحَ الْفَتَى لَمْ يَطُلْ؛ فَقَدْ فَاجَأَهُ الزَّنْجِيُّ أَسْوَأَ مُفَاجَأَةٍ، حِينَ قَالَ لَهُ، فِي لَهْجَةِ الشَّامِثِ السَّاحِرِ: «إِنَّ سَيِّدِي يُحِبُّكَ، وَيَتَمَنَّى لَكَ التَّوْفِيقَ وَالسَّعَادَةَ فِي زَوَاجِكَ، وَيَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَرُدَّ لَهُ الثِّيَابَ الْفَاخِرَةَ الَّتِي اسْتَعْرَزْتَهَا مِنْهُ أَمْسٍ، لِتَظْهَرَ بِمَظْهَرِ أَمِيرِ «الْمَوْصِلِ». وَهَا هِيَ نِيْ أَسْمَالِكَ (أَي: ثِيَابُكَ الْقَدِيمَةَ الْبَالِيَةَ) قَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ سَيِّدِي «أَبُو نَعْلَبَةَ» لِتَظْهَرَ — أَمَامَ سَادَتِكَ — بِمَظْهَرِكَ الْحَقِيقِيِّ، فَلَا يَنْخَدِعُوا فِيكَ بَعْدَ الْيَوْمِ.»

(٢) دَهْشَةُ «زُمْرُدُ»

فَاشْتَدَّتْ دَهْشَةُ «فَضْلِ اللَّهِ» لِهَذِهِ الْمُفَاجَأَةِ، وَأَذْرَكَ — فِي الْحَالِ — حُبَّتَ «الْمُرَامِقِ» وَدَهَاءَهُ. وَلَمْ يَرِ بَدَأًا مِنَ الْإِدْعَانِ (أَعْنِي: لَمْ يَجِدْ مَفْرَأً مِنَ الْخُضُوعِ) لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، فَخَلَعَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الثِّيَابِ، وَرَدَّ إِلَى الزَّنْجِيِّ أَثْوَابَ مَوْلَاهُ. ثُمَّ ارْتَدَى ثِيَابَهُ الْخَلِيقَةَ، وَهُوَ حَائِرٌ فِي أَمْرِهِ، لَا يَدْرِي مَاذَا يَصْنَعُ؟ وَلَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَقُولُ؟ وَكَانَتْ زَوْجُهُ «زُمْرُدُ» تُصْغِي إِلَى الْحَوَارِ، (أَي: تَمِيلُ بِسَمْعِهَا نَحْوَ الْمُنَاقَشَةِ)، فَلَمَّا رَأَتْ زَوْجَهَا يَرْتَدِي الْأَسْمَالَ، (أَي:

بِنْتُ الصَّبَّاحِ

يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْبَالِيَةَ، قَالَتْ مُتَعَجِّبَةً حَائِرَةً: «يَا لَهِ! مَاذَا حَدَّثَ؟ وَأَيُّ كَارِثَةٍ (أَيُّ: مُصِيبَةٍ) حَلَّتْ بِنَا؟ وَبِمَاذَا حَدَّثَكَ الرَّزْجِيُّ؟»



(٣) أَمِيرُ «الْمَوْصِلِ»

فَقَالَ لَهَا زَوْجُهَا، وَقَدْ عَادَتْ إِلَى نَفْسِهِ الطَّمَأِينَةَ وَالثَّقَّةَ: «لَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ لِي خُبْرَ هَذَا الرَّجُلِ وَسُوءَ نِيَّتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - أَبِي إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ السَّهْمُ الَّذِي سَدَّدَهُ إِلَيَّ، وَيَرُدُّ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ (وَالنَّحْرُ: أَعْلَى الصَّدْرِ)، فَقَدْ سَوَّلْتُ (أَيُّ: زَيَّنْتُ) لَهُ نَفْسَهُ أَنْ يُزَوِّجَكَ بِرَجُلٍ فَقِيرٍ أَفَاقٍ، رَغْبَةً فِي الْكَيْدِ لِأَبِيكَ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْهُ. وَقَدْ خُدِعَ فِي مَنْظَرِي - حِينَ رَأَيْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ اللُّصُوصِ - فَحَسِبْتَنِي طَلَبْتَهُ. وَكُنْتُ - لِحَسَنِ حَظِّي - قَدْ كَتَمْتُ

حَقِيقَةً أَمْرِي عَنْهُ، وَحَجَبْتُ سَرِّي دُونَهُ؛ فَقَدْ قُلْتُ لَهُ إِنَّنِي مِنَ «الْمَوْصِلِ» وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْ لَهُ: إِنَّنِي أَمِيرُهَا، وَوَلِيُّ عَهْدِهَا، وَوَرِيثُ مُلْكِهَا. وَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ كَيْفَ فَطَنَ إِلَى حَقِيقَتِي مِنْ غَيْرِ أَنْ أُخْبِرَهُ بِهَا؟ وَقَدْ اسْتَوْلَتْ الدَّهْشَةُ عَلَيَّ حِينَئِذٍ فَلَمْ أَدْرِ: كَيْفَ عَرَفَ أَنَّي لَمْ أَسَافِرْ مِنَ «الْمَوْصِلِ» إِلَى «بَغْدَادَ» إِلَّا لِاتِّزَاجِ بِنْتِ «أَبِي حَمْرَةَ الْمُؤَفَّقِ»؟ وَلَمْ أَعْلَمْ كَيْفَ أَدْرَكَ — مِنْ مَلَامِحِي — أَنَّي أَمِيرٌ؟

فَالآنَ زَالَ عَنِّي الْعَجَبُ وَانْجَلَى اللَّبْسُ (أَي: الْإِشْكَالُ)، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ اخْتَلَقَ لِي (أَي: كَذَبَ عَلَيَّ وَافْتَرَى) هَذِهِ الْإِمَارَةَ، وَهُوَ يَحْسِبُنِي أَفَاقًا مُتَعَطِّلًا، أَوْ صُعْلُوكًا مُتَبَطِّلًا. وَلَقَدْ حُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ نَجَحَ فِي تَدْبِيرِ مُؤَامَرَتِهِ لِيُوقِعَكُمْ فِي أَحْبُولَتِهِ (أَي: شَبَكَّتِهِ). وَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُحَيِّبَ ظَنَّهُ، وَيُحْبِطَ كَيْدَهُ (أَي: يُبْطِلُهُ)، فَفَسَمَ لِكَ الزَّوْاجِ بِأَمِيرِ أُصَيْلِ فِي الْإِمَارَةِ، هُوَ أَمِيرُ «الْمَوْصِلِ» وَوَلِيُّ عَهْدِهَا.»

(٤) ثِيَابُ الْإِمَارَةِ

ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهَا الْأَمِيرُ «فَضْلُ اللَّهِ» قِصَّتَهُ كُلَّهَا. وَلَمْ يَكُذِّبْ يَنْتَهِي مِنْهَا حَتَّى تَهَلَّلَ وَجْهُ عَرُوسِهِ، وَأَشْرَقَتْ أَسَارِيرُهَا (أَي: خُطُوطُ وَجْهِهَا)، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ نُبْلِ أَخْلَاقِكَ — أَيُّهَا الْأَمِيرُ — مَا أَقْنَعَنِي بِكَرَمِ أُصْلِكَ. وَلَنْ يَكُونَ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — إِلَّا مَا يَسُرُّكَ. فَلَا تَجْرَعُ مِمَّا حَدَثَ، وَلَا تَحْزَنْ مِمَّا فَعَلَهُ ذَلِكَ الْمُسِيءُ الْحَاقِدُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ.»

فَشَكَرَ لَهَا الْأَمِيرُ «فَضْلُ اللَّهِ» بُعْدَ نَظَرِهَا، وَأَصَالَهَ رَأْيِهَا. وَأَسْرَعَتْ «زُمْرُدُ» فَنَادَتْ إِحْدَى جَوَارِيهَا، وَأَمَرَتْهَا أَنْ تَذْهَبَ مِنْ فَوْرِهَا (أَي: لِلْحَالِ) إِلَى السُّوقِ، لِتَشْتَرِيَ مِنْهَا ثِيَابًا فَاخِرَةً لِلْأَمِيرِ. وَلَمْ يَمُضْ زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى عَادَتْ الْجَارِيَةُ وَمَعَهَا أَكْسِيَّةٌ فَاخِرَةٌ، وَحُلٌّ ثَمِينَةٌ، جَدِيرَةٌ بِأَمِيرٍ مِثْلِهِ، فَارْتَدَّاهَا الْأَمِيرُ، فَعَادَ إِلَيْهِ رُوَاؤُهُ (أَي: حُسْنُ مَنَظَرِهِ) وَبَهَاؤُهُ بِأَحْسَنَ مِمَّا كَانَ بِالْأَمْسِ.

(٥) وَعِيدُ «زُمْرُدُ»

فَقَالَتْ «زُمْرُدُ» ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً: «تُرَى كَيْفَ يَكُونُ شُعُورُ «الْمُرَامِقِ» الْآنَ؟ لَقَدْ حَسَبَ أَنَّهُ أَوْقَعَنَا فِي أُحْبُولَتِهِ (أَي: شَبَكْتِهِ)، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ هَيَّا لَنَا سَعَادَةً لَمْ تَكُنْ لِتُبَسِّرَ لَنَا لَوْلَاهُ! لَقَدْ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَ بِنْتَ «أَبِي حَمَزَةَ الْمُؤَفَّقِ» بِلِصِّ أَفَاقٍ، فَحَيَّبَ اللَّهُ أَمَلَهُ، وَأَنْقَذَهَا مِنْ كَيْدِهِ، فَرَوَّجَهَا بِأَمِيرِ جَلِيلٍ، مِنْ سُلَالَةِ عَرِيقَةَ (أَي: مَنْ نَسَلِ أَصِيلِ) فِي الْإِمَارَةِ وَالْمُلْكِ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ. عَلَى أَنَّنِي سَاعَرِفُ كَيْفَ أَنْتَقِمُ مِنْهُ انْتِقَامًا لَا يَنْسَاهُ إِلَى الْأَبَدِ، وَأَعَاقِبُهُ عِقَابًا لَا يَخْطُرُ لَهُ عَلَى بَالٍ، لِيَكُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ دَرْسٌ بَلِيغٌ يَرُدُّعُهُ (أَي: يَرُدُّهُ) عَنِ الْكَيْدِ لِلنَّاسِ، فَيَكْفُ عَنْ خِدَاعِهِمْ وَالْمَكْرِ بِهِمْ.» وَحَاوَلَ الْأَمِيرُ أَنْ يَرْجِعَهَا عَنْ عَزْمِهَا عَلَى الْانْتِقَامِ مِنَ «الْمُرَامِقِ»، فَذَهَبَتْ جُهُودُهُ أَدْرَاجَ الرِّيَّاحِ. ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ يَتَعَرَّفَ مِنْهَا مَا دَبَّرَتْهُ لِخَصْمِهَا مِنْ كَيْدٍ، فَلَمْ تُخْبِرْهُ بِشَيْءٍ مِنْ سِرِّهَا.

(٦) انْتِقَامُ بَاطِشُ

وَلَقَدْ صَدَقَتْ «زُمْرُدُ» وَعَيْدَهَا (أَي: كَانَتْ صَادِقَةً فِي التَّهْدِيدِ وَالتَّخْوِيفِ)، وَكَانَ انْتِقَامُهَا مِنْ خَصْمِهَا وَخَصْمِ أَبِيهَا عَنِيفًا بَاطِشًا (أَي: مُتْنَاهِيًا فِي الشَّدَّةِ)، فَقَدْ اعْتَرَمَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ النَّاسِ — مِنْ خَاصَّةٍ وَعَامَّةٍ — يَتَفَكَّهُونَ بِهَا، وَتَرْوِيهَا الْأَخْلَافُ عَنِ الْأَسْلَافِ (أَي: الْأَبْنَاءُ عَنِ الْأَبَاءِ)، فَتَمَّ لَهَا مَا أَرَادَتْ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ رَجَاءِ الْأَمِيرِ «فَضِلِ اللَّهُ»، الَّذِي كَانَ لَا يُحِبُّ الْانْتِقَامَ، وَلَا يَرْضَى مُقَابَلَةَ الْإِسَاءَةِ — مَهْمَا عَظُمَتْ — بِغَيْرِ الْإِحْسَانِ وَالصَّفْحِ وَالْغُفْرَانِ.



الفصل الرابع

(١) في ديوان «المُرامق»

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ خَرَجْتُ «زُمُرْدُ» بَعْدَ أَنْ ارْتَدَّتْ ثِيَابَهَا، وَأَسْدَلْتُ عَلَيَّ وَجْهَهَا قِنَاعَهَا (أَيُّ: الْبُرْفُوعَ الَّذِي تَسْتُرُ بِهِ وَجْهَهَا)، وَاسْتَأْذَنْتُ فِي الْخُرُوجِ زَوْجَهَا. وَمَا زَالَتْ تُسْرِعُ خُطَاها، حَتَّى بَلَغَتْ دِيوَانَ «المُرامِقِ»، فَوَقَفْتُ بِحَيْثُ يَرَاهَا. وَمَا كَادَتْ تَقْعُ عَلَيَّهَا عَيْنَاهُ، حَتَّى بَعَثْتُ رَسُولًا إِلَيْهَا يَسْأَلُهَا عَنْ سَبَبِ قُدُومِهَا، فَأَخْبَرَتْ رَسُولَهُ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تُسِرَّ أَمْرًا خَطِيرًا إِلَى سَيِّدِهِ «أَبِي تَعْلَبَةَ»، (أَيُّ: تُحَدِّثُهُ بِهِ سِرًّا).

(٢) بَيْنَ أَرْزَبٍ وَتَعْلَبٍ

فَذَهَبَ «المُرامِقُ» إِلَى الْحُجْرَةِ الْأُخْرَى، وَأَرْسَلَ فِي طَلَبِهَا. فَلَمَّا مَثَلَتْ (أَيُّ: وَقَفْتُ) بَيْنَ يَدَيْهِ حَنَّتْ رَأْسَهَا، مُتَظَاهِرَةً بِإِجْلَالِهِ وَاحْتِرَامِهِ، فَأَمَرَهَا بِالْجُلُوسِ عَلَيَّ أَرِيكَةً مُجَاوِرَةً. ثُمَّ رَفَعَتْ قِنَاعَهَا، وَقَالَتْ بَعْدَ أَنْ أَدِنَ لَهَا فِي الْحَدِيثِ: «لَقَدْ نِمْتُ لَيْلَةَ أَمْسٍ — يَا «أَبَا تَعْلَبَةَ» — وَأَنَا مَشْغُولَةٌ بِمَا أَنَا فِيهِ مِنْ سُوءِ الْحَظِّ، فَرَأَيْتُ — فِي الْمَنَامِ — حُلْمًا عَجِيبًا: رَأَيْتُ ضَبًّا يَتَكَلَّمُ، وَقَدْ وَفَدَ عَلَيْهِ أَرْزَبٌ وَتَعْلَبٌ. وَعَلِمْتُ مِنْ حَدِيثِهِمَا أَنَّ الْأَرْزَبَ التَّقَطَّتْ تَمْرَةً. وَلَمْ تَكَدْ تَتَفَرَّقُ بِهَا، حَتَّى احْتَالَ عَلَيْهَا التَّعْلَبُ فَخَطَفَهَا مِنْهَا. وَلَمْ يَكِدِ التَّعْلَبُ يَخْطُفُهَا، حَتَّى نَشِبَ الْخِلَافُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْزَبِ.

(٣) بَيْتُ الصَّبِّ

ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيَاهُمَا عَلَى الدَّهَابِ إِلَى بَيْتِ «أَبِي الحِجْلِ» — وَهُوَ الصَّبُّ — بَعْدَ أَنْ تَعَاهَدَا عَلَى الرِّضَى بِمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ قَضَاؤُهُ وَحُكْمُهُ، فَلَمَّا بَلَغَا بَيْتَ الصَّبِّ سَمِعَتْ حِوَارًا طَرِيفًا، مَا أَظُنُّنِي سَمِعْتُ أَعْجَبَ مِنْهُ.

قَالَتْ الأَرْزُبُ مُنَادِيَةً: «يَا أَبَا الحِجْلِ..»

فَقَالَ الصَّبُّ: «سَمِيعًا دَعَوْتِ.»

قَالَتْ الأَرْزُبُ: «أَتَيْتُكَ لِنَحْتَكِمَ.»

فَقَالَ الصَّبُّ: «عَادِلًا حَكَمْتِ.»

قَالَتْ الأَرْزُبُ: «فَاخْرُجِ إِلَيْنَا.»

فَقَالَ الصَّبُّ: «فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الحَكْمُ.» (يَعْنِي: أَنَّ القَاضِيَ لَا يَنْتَقِلُ إِلَى دَارِ المُخْتَصِمِينَ، بَلْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَقِلُونَ إِلَى دَارِهِ لِیَحْكُمَ بَيْنَهُمْ).

قَالَتْ الأَرْزُبُ: «إِنِّي وَجَدْتُ تَمْرَةً.»

فَقَالَ الصَّبُّ: «حُلُوهَ فَكَلِيهَا.»

قَالَتْ الأَرْزُبُ: «فَاخْتَلَسَهَا التَّغْلُبُ.» أَي: اسْتَلْبَهَا.

فَقَالَ الصَّبُّ: «لِنَفْسِهِ بَعَى الحَيْرِ.» أَي: طَلَبَهُ.

قَالَتْ الأَرْزُبُ: «فَلَطَمْتُهُ.»

فَقَالَ الصَّبُّ: «بِحَقِّكَ أَحَدْتِ.»

قَالَتْ الأَرْزُبُ: «فَلَطَمَنِي.»

فَقَالَ الصَّبُّ: «حُرٌّ أَنْتَصَرَ لِنَفْسِهِ.»

قَالَتْ الأَرْزُبُ: «فَأَقْضِ بَيْنَنَا.»

فَقَالَ الصَّبُّ: «قَدْ قَضَيْتِ.»

فَذَهَبَ التَّغْلُبُ وَالأَرْزُبُ رَاضِيَيْنِ بِحُكْمِهِ.

(٤) جِوَارُ الضَّبِّ

وَهَذِهِ قِصَّةٌ حَفِظْتُهَا فِي الْمَدْرَسَةِ فِي زَمَنِ الطُّفُولَةِ، وَكُنْتُ شَدِيدَةَ الْإِعْجَابِ بِهَا. وَلَكِنَّ
إِعْجَابِي قَدْ اشْتَدَّ حِينَ تَمَثَّلْتُ لِي فِي الْمَنَامِ، كَأَنَّهَا حَقِيقَةٌ رَاهِنَةٌ (أَيُّ: دَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ). وَازْدَدْتُ
لَهَا تَقْدِيرًا حِينَ رَأَيْتُ — بَعَيْنِي رَأَيْتُ — شُخُوصَ هَذِهِ الْأَسْطُورَةِ يَتَكَلَّمُونَ وَيَتَحَاوِرُونَ
(أَيُّ: يَتَنَاقَشُونَ). وَأَبْصَرْتُ الضَّبَّ يَقْضِي بَيْنَ الْأَرْزَبِ وَالتُّعْلَبِ، وَقَدْ ظَهَرَ «أَبُو الْحَسَلِ»
(أَيُّ: الضَّبُّ) فِي صُورَةٍ عَجِيبَةٍ؛ جِسْمٌ ضَبٌّ رُكْبٌ فِي رَأْسِهِ وَجْهٌ إِنْسَانٍ وَلِسَانُ إِنْسَانٍ،
فَتَوَجَّهْتُ لِأَبِي الْحَسَلِ، أَحَاوِرُهُ (أَيُّ: أُنَاقِشُهُ) كَمَا حَاوَرْتَهُ الْأَرْزَبُ مُنَادِيَةً:

- يَا أَبَا الْحَسَلِ.
- لَبَّيْكَ يَا كَرِيمَةَ الْأَصْلِ.
- بَاكِئَةً جِئْتُكَ مُتَأَلِّمَةً.
- بَلْ شَاكِئَةً قَدِمْتُ مُنْظَلَمَةً.
- أَتَنْصِتُ إِلَى قِصَّتِي؟
- عَرَفْتُهَا يَا بَنِيَّتِي!
- كَيْفَ، وَمَا رَوَيْتُهَا؟!
- عَرَفْتُهَا، عَرَفْتُهَا، كَأَنَّي رَأَيْتُهَا!
- مِنْ قَبْلِ أَنْ أَقْصَهَا؟
- نَصَّهَا، وَفَصَّهَا!
- فَبِمَاذَا تَقْضِي فِيهَا؟
- أَتُرْكُهَا إِلَى قَاضِيهَا.
- أَيْ قَاضٍ عَنَيْتَ، وَبِحُكْمِهِ ارْتَضَيْتَ؟
- رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ، هُوَ حَاكِمٌ «بَغْدَادَ». الْعَدْلُ سَجِيئَتُهُ، وَ«أَبُو تَعْلَبَةَ» كُنَيْتُهُ،
وَالصَّوَابُ حُكْمُهُ، وَ«زِيَادٌ» اسْمُهُ، فَتَوَجَّهِي إِلَيْهِ، وَقْصِي شَكْوَاكَ عَلَيْهِ.



(٥) أَدَانُ الْفَجْرِ

وَهَمَمْتُ أَنْ أَتَمَادِيَ فِي الْحِوَارِ (أَيُّ: أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَمِرَّ فِي الْمُنَاقَشَةِ) وَإِذَا بِصَوْتِ الْمُؤَدِّنِ
يُجَلِّجُلُ (أَيُّ: يُسْمَعُ شَدِيدًا عَالِيًا) فِي الْفَضَاءِ، مُؤَدِّنًا (أَيُّ: مُعَلِّمًا وَمُخْبِرًا) بِالْفَجْرِ،
فَاسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي مُسْتَبْشِرَةً مَسْرُورَةً، وَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّي أَدْرَكْتُ بُغْيَتِي، وَظَفِرْتُ
بِطَلْبَتِي، (أَيُّ: نَلْتُ مَا أُرِيدُهُ وَأَبْتَغِيهِ)، وَبَلَغْتُ مَا أَطْلُبُهُ وَأَرْتَجِيهِ.

(٦) نَصِيرُ الْمَظْلُومِ

فَتَهَلَّلَ «المُرَامِقُ» (أَيُّ: تَلَاً وَجْهَهُ فَرَحًا وَسُرُورًا)، وَامْتَلَأَتْ نَفْسُهُ إِعْجَابًا بِرِجَاحَةِ عَقْلِهَا، وَحُسْنِ أَدَبِهَا، وَبِلَاغَةِ تَعْبِيرِهَا، وَفِصَاحَةِ بَيَانِهَا، وَطَلَاقَةِ لِسَانِهَا، فَقَالَ لَهَا: «يُسْعِدُنِي أَنْ أَنْصِفِكَ أَيَّتُهَا الْفَتَاةُ الرَّاشِدَةُ الْكَرِيمَةُ.»

(٧) شَكْوَى «زُمْرُدُ»

فَقَالَتْ «زُمْرُدُ»: «لَقَدْ جُنْتُ أَلْتَمَسُ (أَيُّ: أَطْلُبُ) مِنْ مَوْلَايَ «أَبِي ثَعْلَبَةَ» أَنْ يُعِيدَ الْعَدْلَ إِلَى نِصَابِهِ (أَيُّ: يَرْجِعُهُ إِلَى أَصْلِهِ)، وَيَرْفَعَ عَنِّي مَا حَاقَ بِي مِنَ الْجَوْرِ، (أَيُّ: مَا أَحَاطَ بِي وَاشْتَمَلَ عَلَيَّ مِنَ الظُّلْمِ). وَلَا عَجَبٌ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ عَلَى أَيْدِي الْعَادِلِينَ مِنْ أَمْثَالِ سَيِّدِي «أَبِي ثَعْلَبَةَ» الْقَلِيلِينَ، يَعْلُو الْحَقُّ، وَيَنْهَزُمُ الْبَاطِلُ، وَيَنْتَصِفُ الْمَظْلُومُ مِنَ الظَّالِمِ.»

فَقَالَ لَهَا «المُرَامِقُ»: «أَمْظَلُومَةٌ أَنْتِ يَا بُنَيَّتِي؟ فَلَا وَاللَّهِ لَنْ أَدْخِرَ وَسْعًا (أَيُّ: لَنْ أَتْرَكَ جُهْدًا) فِي رَفْعِ ظِلَامَتِكَ. فَحَدِّثِينِي بِقِصَّتِكَ.»

(٨) مَجْمَعُ الْأَمْرَاضِ

فَقَالَتْ لَهُ: «إِذَا زَعَمَ إِنْسَانٌ، أَيْ: إِذَا تَحَدَّثَ حَدِيثًا مَشْكُوكًا فِي صِحَّتِهِ: أَنْبِي عَوْرَاءُ، أَوْ صَلْعَاءُ (أَيُّ: لَيْسَ فِي مُقَدِّمِ رَأْسِي شَعْرٌ)، أَوْ قَالَ: إِنَّنِي دَمِيمَةٌ السُّحْنَةَ (أَيُّ: قَبِيحَةُ الْوَجْهِ)، أَوْ بَكْمَاءُ (أَيُّ: خُرْسَاءُ)، أَوْ بَخْرَاءُ (أَيُّ: مُنْتِنَةُ الْفَمِ)، أَوْ كُتْعَاءُ، (وَالْكُتْعَاءُ هِيَ مَنْ رَجَعَتْ أَصَابِعُهَا إِلَى كَفِّهَا، وَظَهَرَتْ مَفَاصِلُ أَصَابِعِهَا)، أَوْ سَلَاءُ، أَوْ مُقْعَدَةٌ، (وَهِيَ الَّتِي أَصَابَهَا دَاءٌ فِي جَسَدِهَا فَأَعْجَزَهَا عَنِ الْمَشْيِ)، أَوْ وَكْعَاءُ، (وَهِيَ الَّتِي التَوَتَّ إِبْهَامُ رِجْلِهَا فَأَقْبَلَتْ عَلَى السَّبَابَةِ حَتَّى يَرَى أَصْلُهَا خَارِجًا كَالْعُقْدَةِ)، أَوْ حَدْبَاءُ، (وَهِيَ الَّتِي خَرَجَ ظَهْرُهَا وَدَخَلَ صَدْرُهَا وَبَطْنُهَا)، أَوْ مُورَمَةٌ الْجِسْمِ، أَوْ جَرْبَاءُ، (أَيُّ: مُصَابَةٌ بِالْجَرَبِ)، فَهَلْ تَرَاهُ (أَيُّ: تَظُنُّهُ) أَنْصَفِنِي فِيمَا زَعَمَ، أَمْ تَرَاهُ كَذَبَ عَلَيَّ وَافْتَرَى؟»

(٩) عَلَى نَهْرِ «دِجْلَةَ»

فَقَالَ لَهَا: «مَا رَأَيْتُ فِي حَيَاتِي كُلِّهَا أَكْمَلَ مِنْكَ أَدَبًا، وَلَا أَحْسَنَ خَلْقًا (أَيُّ: خِلْقَةً) وَخُلُقًا (أَيُّ: طَبْعًا وَعَادَةً)، فَخَبِّرِينِي مَنْ تَقْصِدِينَ؟ وَمِمَّنْ تَشْكِينَ؟»

فَقَالَتْ: «فَكَيْفَ تَحْكُمُ — يَا «أَبَا تَعْلَبَةَ» — إِذَا قُلْتَ لَكَ: إِنَّ أَبِي هُوَ الَّذِي يُشِيعُ عَنِّي هَذِهِ الشَّوَائِعَ؛ أَيُّ: يُدِيعُ هَذِهِ الْأَخْبَارَ؟ لَعَلَّ لَهُ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ أَجْهَلُهَا، فَمَا عَلِمْتُهُ يَسْعَى لِغَيْرِ إِسْعَادِي. وَمَا كَانَ لِيَخْطُرَ بِبَالِي أَنْ أَتَحَدَّثَ بِمَا تَحَدَّثْتُ بِهِ إِلَيْكَ، لَوْلَا ذَلِكَ الْمَنَامُ الْعَجِيبُ الَّذِي قَصَصْتَهُ عَلَيْكَ.» فَقَالَ «الْمُرَامِقُ»: «أَلَا تُخْبِرِينَنِي بِاسْمِ أَبِيكَ وَصِنَاعَتِهِ وَعُنْوَانِهِ؟»

فَقَالَتْ: «نَعَمْ يَا سَيِّدِي، فَهُوَ «أَبُو نَصْرِ عُمَرُ الصَّبَاغُ» وَبَيْتُهُ مَعْرُوفٌ عَلَى الضَّفِيفَةِ الشَّرْقِيَّةِ (أَيُّ: الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ) لِنَهْرِ «دِجْلَةَ».»

فَقَالَ «الْمُرَامِقُ»: «عُودِي — إِذَا شِئْتَ — يَا سَيِّدَتِي إِلَى بَيْتِكَ فَلَنْ تَرَى إِلَّا مَا يُسْرُكُ.»

(١٠) حِوَارُ الزَّوْجَيْنِ

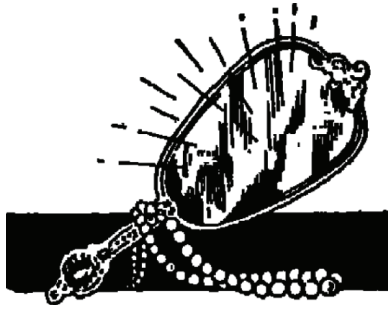
فَشَكَرَتْ «زُمْرُدُ» لِلْمُرَامِقِ عَطْفَهُ، وَلَنَمَّتْ يَدَهُ (أَيُّ: قَبَلَتْهَا)، وَأَسَدَلَتْ قِنَاعَهَا (أَيُّ: أَرْحَتْ بُرْقُعَهَا عَلَى وَجْهِهَا)، وَخَرَجَتْ مِنَ الْعُرْفَةِ، عَائِدَةً — فِي طَرِيقِهَا — إِلَى بَيْتِهَا.

ثُمَّ قَصَّتْ عَلَى زَوْجِهَا كُلِّ مَا فَعَلْتَهُ، وَحَتَمَتْ حَدِيثَهَا قَائِلَةً: «لَقَدْ رَدَدْنَا إِلَى «الْمُرَامِقِ» سَهْمَهُ الَّذِي سَدَدَهُ إِلَيْنَا. لَقَدْ اتَّمَرْنَا بِمَا لِيَجْعَلَنَا سُخْرِيَةَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَتَرَدَّى (أَيُّ: سَقَطَ) فِي مِثْلِ الْبِئْرِ اللَّتِي أَرَادَ أَنْ يَحْفِرَهَا لَنَا.»

وَدَارَتْ مَحَاوِرَةً (أَيُّ: مُنَاقَشَةً) طَوِيلَةً بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، فَقَدْ كَانَ الْأَمِيرُ «فَضْلُ اللَّهِ» يَرَى دَائِمًا، أَنَّ التَّجَاوُزَ (أَيُّ: الصَّفْحَ) عَنِ الْإِسَاءَةِ خَيْرٌ مِنْ مُقَابَلَتِهَا بِمِثْلِهَا. أَمَّا «زُمْرُدُ» فَكَانَتْ — عَلَى الْعُكْسِ مِمَّا يَرَاهُ الْأَمِيرُ — تَرَى فِي مُعَاقِبَةِ الْجُنَاةِ (أَيُّ: الْمَجْرِمِينَ) وَقِصَاصِهِمْ (أَيُّ: جَزَائِهِمْ وَعِقَابِهِمْ) خَيْرٌ وَسَبِيلَةٌ لِتَأْدِيبِهِمْ وَتَخْوِيفِ مَنْ تَسَوَّلَ (أَيُّ: تَزَيَّنَّ) لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يُقْلَدَهُمْ. كَمَا تَرَى أَنَّ مِنْ وَاجِبِ الْقَادِرِينَ أَلَّا يَنْهَآوُنَا فِي زَجْرِ الْأَشْقِيَاءِ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِيهِمْ مَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، فَإِنَّهُمْ إِذَا أَفْلَتُوا مِنَ الْقِصَاصِ عَاثُوا (أَيُّ: أَفْسَدُوا) فِي الْأَرْضِ.



وَقَدْ خَتَمَتْ جِوَارَهَا مَعَ زَوْجِهَا بِالْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ
بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَفُ الْإِيمَانِ.»



الفصل الخامس

(١) فَرَعٌ وَطُمَأْنِينَةٌ

أَمَّا «الْمُرَامِقُ» فَقَدْ رَأَى فِي تِلْكَ الْفَتَاةِ الْبَارِعَةِ الْفَصِيحَةِ الرَّاجِحَةِ الْعَقْلِ مَثَلًا كَامِلًا لِلزَّوْجِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي كَانَ يَنْشُدُهَا (أَي: يَطْلُبُهَا) وَيَتَمَنَّاهَا.
فَأَرْسَلَ يَسْتَدْعِي «عُمَرَ الصَّبَّاعَ» إِلَيْهِ. وَمَا كَادَ «الصَّبَّاعُ» يَرَى رَسُولَ «الْمُرَامِقِ» حَتَّى امْتَنَعَ وَجْهَهُ، (أَي: تَغَيَّرَ لَوْنُهُ)، وَحَسِبَ أَنَّ أَحَدَ أَعْدَائِهِ قَدْ شَكَاهُ إِلَى الْحَاكِمِ، فَذَهَبَ يَتَوَجَّسُ شَرًّا، (أَي: أَحَسَّ صَوْتًا خَفِيًّا يَهْجُسُ فِي نَفْسِهِ بِالضَّرْرِ). وَمَا كَادَ يَصِلُ، حَتَّى هَشَّ «الْمُرَامِقُ» بِهِ وَبَشَّ (أَي: خَفَّ إِلَيْهِ وَارْتَاخَ)، وَأَدْنَاهُ (أَي: قَرَّبَهُ) مِنْ مَجْلِسِهِ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الْبَهْجَةُ (أَي: تَمَلَّكَ الْفَرَحُ) بِلِقَائِهِ.

(٢) سَبَبُ الْحَفَاوَةِ

فَعَجِبَ «الصَّبَّاعُ» مِمَّا رَأَى مِنْ بَشَاشَةِ «الْمُرَامِقِ» وَحَفَاوَتِهِ بِهِ، (أَي: مُبَالِغَتِهِ فِي إِكْرَامِهِ وَإِلْطَافِهِ وَالْعِنَايَةِ بِهِ). وَلَمْ يَدْرِ لِهَذَا التَّكْرِيمِ سَبَبًا، وَظَهَرَ الْارْتِبَاكُ عَلَى وَجْهِهِ. ثُمَّ قَالَ لَهُ «الْمُرَامِقُ»: «إِنِّي لَسَعِيدُ الْحَظِّ إِذْ أَرَاكَ يَا «أَبَا نَصْرِ»، فَقَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ ثَنَاءً مُسْتَطَابًا. وَقَدْ اسْتَفَاضَتْ بَيْنَ النَّاسِ شُهْرَتُكَ بِالِاسْتِقَامَةِ وَالْوَرَعِ (أَي: التَّقْوَى وَالصَّلَاحِ).»
فَأَجَابَهُ «الصَّبَّاعُ»: «أَشْكُرُ لِسَيِّدِي «أَبِي تَعْلَبَةَ» حُسْنَ رَأْيِهِ فِيَّ، وَتَنَاءَهُ عَلَيَّ، كَمَا أَشْكُرُ لَهُ أَنْ أُنَاحَ لِي هَذِهِ الْفُرْصَةَ السَّعِيدَةَ لِلْقِيَاهِ وَالتَّعَرُّفِ بِهِ، فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا سُورٌ أَعْظَمُ مِنَ التَّعَرُّفِ إِلَى الْكِبَرَاءِ الصَّالِحِينَ، وَالتَّقْيَاهِ الْبَرَّةِ مِنْ أُمَّثَالِ مَوْلَانِي.»

(٣) الْفَتَاةُ التَّاعِسَةُ

فَقَالَ «الْمُرَامِقُ»: «لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لَكَ بِنْتًا لَمَّا تَتَزَوَّجُ.»
 فَقَالَ لَهُ «الصَّبَّاحُ»: «لَسْتُ أَكْذِبُكَ الْقَوْلَ — يَا سَيِّدِي «أَبَا تَعْلَبَةَ» — فَإِنَّ بِنْتِي قَدْ
 أُرْبِتْ سَنُهَا (أَيُّ: زَادَ عُمُرُهَا) عَلَى الثَّلَاثِينَ عَامًا. وَلِكِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ تَاعِسَةٌ لَا تَصْلُحُ لِلزَّوْاجِ،
 لِأَنَّهَا عَوْرَاءُ، صَمَاءٌ، بَكْمَاءُ، حَدْبَاءُ، شَوْهَاءُ، دَمِيمَةٌ الْخَلْقَةِ، جَرَبَاءُ، مُقْعَدَةٌ (أَيُّ: عَاجِزَةٌ
 عَنِ الْمَشْيِ) وَهِيَ — عَلَى ذَلِكَ — سَلَاءٌ. وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْعُيُوبِ الْجَسْمِيَّةِ مَا لَوْ
 وُزِعَ عَلَى مِائَةِ وَاحِدَةٍ لَشَوَّهَ حُسْنَهُنَّ (أَيُّ: فَبَحَّ جَمَالَهُنَّ)، وَأَصْبَحَ كَافِيًا لِلتَّنْفِيرِ مِنْهُنَّ،
 (أَيُّ: لِجَعْلِ مَنْ يِرَاهُنَّ يَتَّبَاعِدُ عَنْهُنَّ).»

(٤) حَدِيثُ الْمُحْدُوْعِ

فَقَالَ «الْمُرَامِقُ» مُبْتَسِمًا: «مَرَحَى مَرَحَى يَا «أَبَا نَصْرِ!» فَإِنَّكَ لَمْ تَعُدْ مَا فِي نَفْسِي، فَقَدْ
 كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّكَ لَنْ تَتَمَدَّحَ بِجَمَالِ ابْنَتِكَ، وَلَنْ تَصِفَهَا بِغَيْرِ مَا وَصَفْتَ، لِبُعْدِكَ عَنِ
 الْخَيْلَاءِ (أَيُّ: الرَّهْوِ). وَلَكِنْ أَعْلَمُ يَا صَاحِبِي أَنَّ هُنَاكَ رَجُلًا يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِهَذِهِ الْفَتَاةِ
 التَّاعِسَةِ الْجَرَبَاءِ، الْمُقْعَدَةِ الشَّوْهَاءِ، السَّلَاءِ الْعَوْرَاءِ الصَّمَاءِ. وَأَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى ذَلِكَ بِالِغَةِ مَا
 بَلَغَتْ بِنْتُكَ مِنَ الدَّمَامَةِ وَالْفُبْحِ وَالتَّشْوِيهِ.»
 فَعَجِبَ «الصَّبَّاحُ» مِمَّا سَمِعَ، وَقَالَ لَهُ: «وَمَنْ هُوَ هَذَا الرَّجُلُ يَا سَيِّدِي «أَبَا تَعْلَبَةَ»،
 فَإِنِّي شَدِيدُ الشَّوْقِ إِلَى التَّعْرِفِ بِهِ.» فَقَالَ لَهُ «الْمُرَامِقُ»: «يَسْرُنِي أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ ذَلِكَ
 الرَّجُلَ هُوَ مُحَدِّثُكَ.»

(٥) حَيْرَةُ «الصَّبَّاحِ»

وَهُنَا اشْتَدَّتْ حَيْرَةُ «الصَّبَّاحِ» وَزَادَ ارْتِبَاكُهُ، ثُمَّ حَدَّقَ (أَيُّ: سَدَّدَ نَظْرَهُ) فِي وَجْهِ الْحَاكِمِ،
 وَبَرَّقَ عَيْنَيْهِ (أَعْيَى: وَسَعَّهْمَا وَأَحَدَ النَّظَرَ) وَهُوَ يَحْسَبُهُ هَازِلًا غَيْرَ جَادٍّ، وَقَالَ لَهُ وَهُوَ لَا
 يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا سَمِعْتَهُ أُذُنَاهُ: «لَا ضَيْرَ أَنْ يَمْرَحَ سَيِّدِي مَا شَاءَ أَنْ يَمْرَحَ، وَأَنْ يُمَعِنَ فِي
 السُّخْرِيَّةِ مِنْ ابْنَتِي، مَا دَامَ يَجِدُ فِي ذَلِكَ دُعَابَةً لَهُ وَتَسْلِيَةً.»

فَقَالَ لَهُ «الْمُرَامِقُ»: «كَلَّا، كَلَّا، فَمَا خَطَرْتُ لِي الدُّعَابَةَ (أَي: الْمُرَاحَ) عَلَى بَالٍ. وَمَا كُنْتُ لِأُدَاعِبَكَ (أَي: أَمْرَحَ مَعَكَ) أَوْ أَسْخَرَ مِنْكَ (أَي: أَهْزَأُ بِكَ) أَوْ أَتَطَاهَرَ بِمَا لَا أَعْتَقِدُهُ. لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى الزَّوْجِ بِابْنَتِكَ. أَفَهَمْتَ مَا أَقُولُ؟ عَزَمْتُ عَلَى ذَلِكَ عَزْمًا لَا تَرُدُّدَ فِيهِ وَلَا هَوَادَةً، فَهَلْ تَسْمَعُ؟ عَزَمْتُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْعُدُولِ (أَي: الرَّجُوعِ) عَنْ رَأْيِي، وَلَنْ يَنْبَغِي عَن عَزْمِي كَائِنٌ كَانَ.»

فَلَمْ يَتِمَّالِكَ «الصَّبَاغُ» أَنْ قَهَقَهُ ضَاحِكًا، وَقَالَ لِلْمُرَامِقِ: «أُقْسِمُ بِاللَّهِ وَبِأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ) إِنَّ ابْنَتِي مُقْعَدَةٌ، شَوْهَاءُ، شَلَاءُ، بَكْمَاءُ، صَمَاءُ، وَإِنَّهَا إِلَى ذَلِكَ صَلْعَاءُ، عَوْرَاءُ، حَدْبَاءُ، وَإِنَّهَا قَدْ جَمَعَتْ مِنْ صُنُوفِ الْقُبْحِ، وَالْوَانِ الدَّمَامَةِ، مَا لَمْ تَقَعْ عَلَى مِثْلِهِ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ بِهِ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالٍ مُتَخَيِّلٌ.»

فَقَالَ «الْمُرَامِقُ»، وَقَدْ حَسِبَ أَنَّ «الصَّبَاغَ» يَحْدَعُهُ: «لَقَدْ عَرَفْتُ عَنْهَا كُلَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَعَلِمْتُ مِنْ دِمَامَتِهَا وَقُبْحِ وَجْهِهَا وَتَشْوِيهِ جِسْمِهَا أَكْثَرَ مِمَّا رَوَيْتَهُ لِي، وَحَدَّثْتَنِي بِهِ، وَقَصَصْتَهُ عَلَيَّ. وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّي لَا أَتَمَنَّى الزَّوْاجَ بِفَتَاةٍ إِلَّا إِذَا اكْتَمَلَتْ لَهَا أَسْبَابُ الدَّمَامَةِ، وَاجْتَمَعَتْ لَهَا وَسَائِلُ التَّشْوِيهِ وَالْقُبْحِ. وَقَدْ بَحَثْتُ — طُولَ عُمْرِي — عَنْ وَاحِدَةٍ تَجْتَمِعُ لَهَا كُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَلَمْ أَعُثِرْ عَلَيْهَا إِلَّا الْيَوْمَ، فَعَلِمْتُ أَنَّ أَمْنِيَّتِي تَحَقَّقَتْ وَرَغْبَتِي تَمَّتْ، فَلَا تَعْجَبُ مِمَّا تَسْمَعُ، فَلِلنَّاسِ فِيهَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبًا.»

(٦) بِنْتُ «الصَّبَاغِ»

فَزَادَ عَجَبَ «الصَّبَاغِ»، وَاشْتَدَّتْ حَيْرَتُهُ مِمَّا سَمِعَ، وَقَالَ مُرْتَبِكًا: «أُقْسِمُ لَكَ جَهْدَ أَيْمَانِي (أَي: مُبَالِغًا فِي الْيَمِينِ، بِإِذْلًا جُهْدِي فِي الْقَسَمِ): إِنَّنِي صَادِقٌ فِيهَا وَصَفْتُ بِه ابْنَتِي، وَإِنَّ دَهْشَتِي مِمَّا رَزَقَهَا اللَّهُ مِنْ صُنُوفِ الدَّمَامَةِ وَالتَّشْوِيهِ لَا يَعْدِلُهَا (أَي: لَا يُسَاوِيهَا) إِلَّا دَهْشَتِي مِنْ رَغْبَةٍ مِثْلِكَ فِي مِثْلِهَا، وَإِصْرَارِكَ عَلَى الزَّوْاجِ بِهَا. أُقْسِمُ لَكَ — وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنَّي صَادِقٌ فِيهَا أَقُولُ — إِنَّنِي لَمْ أَكْذِبْكَ شَيْئًا مِمَّا حَدَّثْتُكَ بِهِ. وَحَسْبُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اسْمَهَا «عَفْرِيْتُ النَّهَارِ». وَلَيْسَ يَجُوزُ لِمَنْ لِي أَنْ يَغُرَّ (أَي: يَحْدَعُ) أَحَدًا أَوْ يُغَرَّرَ بِهِ، (أَي: يُعْرِضَهُ لِلْهَلَاكِ).»

بِنْتُ الصَّبَاغِ

فَقَالَ الْحَاكِمُ، وَقَدْ نَفَدَ (أَيُّ: فَرَغَ) صَبْرُهُ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْغَضَبُ، حَتَّى أَخْرَجَهُ عَنْ وَقَارِهِ (أَيُّ: حِلْمِهِ وَرَزَانَتِهِ): «مَهْ أَيُّهَا الرَّجُلُ (أَيُّ: اكْتَفَى عَنِ الْحَدِيثِ)، فَقَدْ أَصْجَرْتَنِي بِثَرْتَرَةٍ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا، وَلَا فَائِدَةَ مِنْهَا. لَقَدْ عَقَدْتُ نَيْتِي (أَيُّ: تَفَكَّرِي فِي الْأَمْرِ)، وَلَقَدْ أَقْسَمْتُ لِأَنْفَذَنْ مَشِيئَتِي، وَلَنْ أَرْضَى عَنْهَا بِدِيلًا، فَقَدْ اخْتَرْتُهَا أَيًّا كَانَتْ، وَبِالْغَةِ مَا بَلَغَتْ مِنْ الدَّمَامَةِ وَالتَّشْوِيهِ، فَأَقْصِرْ (أَيُّ: كُفَّ وَامْتَنَعَ) عَنِ مُكَابَرَتِكَ وَعِنَايِكَ. وَحَسْبُكَ مَا أَلْصَقْتَهُ بِالْفَتَاةِ مِنْ قَبِيحِ الْأَوْصَافِ وَالنُّعُوتِ. قُلْتُ لَكَ إِنَّنِي لَنْ أَعْدِلَ عَنِ الزَّوْاجِ بِعَفْرِيَّتِ النَّهَارِ، فَكَيْفَ تَقُولُ؟»

(٧) حِيلَةُ بَارِعَةَ

وَلَمَّا رَأَى «الصَّبَاغُ» إِضْرَارَ «الْمُرَامِقِ» وَتَشَبُّثَهُ بِرَأْيِهِ، أَدْرَكَ أَنَّ فِي الْأَمْرِ حِيلَةً، وَقَدَّرَ أَنَّ بَعْضَ خُصُومِ «الْمُرَامِقِ» وَأَعْدَائِهِ مِمَّنْ أَلْحَقَ بِهِمُ الْأَذَى — وَهُمْ كَثِيرُونَ — أَرَادَ أَنْ يَتَلَهَّى (أَيُّ: يَنْسَلِي) بِهِ وَيَنْتَقِمَ مِنْهُ، فَزَيَّنَ لَهُ الزَّوْاجِ بِعَفْرِيَّتِ النَّهَارِ، بَعْدَ أَنْ مَثَّلَهَا لَهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ؛ ذَكَاءً، وَعِلْمًا، وَفَصَاحَةً لِسَانٍ، وَجَمَالَ خَلْقٍ وَخَلْقٍ. وَلَمْ يَشْكُ «الصَّبَاغُ» فِي أَنَّ «الْمُرَامِقَ» قَدْ انْخَدَعَ فِي حَقِيقَتِهَا، وَأَنَّ خَادِعُهُ كَانَ مَاهِرًا بَارِعَ الْحِيَلَةِ لَبِيقًا، (أَيُّ: حَاذِقًا رَفِيقًا بِمَا يَعْمَلُهُ).

(٨) مَهْرُ الْعَرُوسِ

وَرَأَى «الصَّبَاغُ» أَنَّ يَنْتَهزَ الْفُرْصَةَ، فَهِيَ — بِلَا شَكٍّ — فُرْصَةٌ لَا تَسْنَحُ (أَيُّ: لَا تَعْرِضُ) فِي الْعُمْرِ كُلِّهِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، فَإِذَا ضَاعَتْ، ضَاعَتْ إِلَى الْأَبَدِ، فَاشْتَطَّ فِي طَلَبِ الْمَهْرِ: أَلْفَ دِينَارٍ مَعْجَلَةً، وَمَثَّلَهَا مُؤَخَّرَةً، فَأَعْطَاهُ «الْمُرَامِقُ» مَا طَلَبَ مِنَ الْمَهْرِ كَامِلًا عَلَى فِدَاخَتِهِ (أَيُّ: عَلَى ثَقَلِهِ وَكَثْرَتِهِ). وَلَمَّا تَمَّتْ صِيغَةُ الْعَقْدِ أَبِي «الصَّبَاغُ» أَنْ يُمَضِّيَهُ إِلَّا إِذَا أَحْضَرَ الْحَاكِمُ مِائَةً مِنْ سَرَاةِ الدَّوْلَةِ (أَيُّ: أَشْرَافِهَا) وَأَعْيَانِهَا وَوُجْهَائِهَا وَأُولِي الْأَمْرِ فِيهَا، لِيَشْهَدُوا بِمَا رَأَوْا وَسَمِعُوا.

(٩) شُهُودُ الْعَقْدِ

فَعَجِبَ «الْمُرَامِقُ» مِنْ تَشَكُّكِ «الصَّبَّاحِ» وَارْتِيَابِهِ وَأَحْصَرَ لَهُ جُمُوهْرًا كَبِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْأَعْيَانِ يَرَبُّو (أَي: يَزِيدُ) عَلَى مِائَةٍ. وَلَمَّا اكْتَمَلَ الْمَجْلِسُ قَالَ «الصَّبَّاحُ»: «هَلْ يَأْذُنُ لِي سَيِّدِي الْحَاكِمُ أَنْ أَشْهَدَ الْحَاضِرِينَ عَلَى أَنَّي لَمْ أَقْبَلْ أَنْ أُزَوِّجَ ابْنَتِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ إِصْرَارَكَ عَلَى رَأْيِكَ؟ وَأَنَّي لَمْ أُدْعِنِ لِمَشِيئَتِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْتُ مِنْ مُقَاوَمَةِ إِرَادَتِكَ؟ وَهَلْ يَأْذُنُ لِي سَيِّدِي فِي أَنْ أَشْهَدَ هَذَا الْجَمْعَ الْحَافِلَ بِأَعْيَانِ الدَّوْلَةِ وَسِرَاةِ الْمَدِينَةِ أَنَّي لَمْ أَقْصِرْ فِي إِخْبَارِكَ أَنَّ ابْنَتِي مِثَالٌ لِلتَّشْوِيهِ وَالِدَّمَامَةِ (أَي: الْقَبَاحَةِ)؟ فَإِذَا أَصْرَرْتَ عَلَى الْبِنَاءِ (أَي: عَلَى الزَّوْجِ) بِهَا ثُمَّ ظَهَرَ لَكَ مِنْ عُيُوبِهَا مَا حَذَرْتُكَ، فَلَمْ تُطِقِ الْبِقَاءَ مَعَهَا، فَلَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ تَرْكِهَا وَالْحَلَاصِ مِنْهَا، إِلَّا إِذَا دَفَعْتَ لَهَا أَلْفَ دِينَارٍ أُخْرَى مِنَ الذَّهَبِ تَعْوِيضًا لَهَا، وَهُوَ الْمُبْلَغُ الَّذِي اتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ مُؤَخَّرَ صَدَاقِهَا (أَي: مَهْرِهَا).»

(١٠) لَيْئَةُ الْعُرْسِ

فَقَالَ «الْمُرَامِقُ» وَقَدْ نَفَدَ صَبْرُهُ مِنْ ثَرْتَرَةِ «الصَّبَّاحِ»: «اللَّهُمَّ إِنَّي قَبِلْتُ، اللَّهُمَّ إِنَّي رَضِيْتُ. قَبِلْتُ وَرَضِيْتُ فَلْيَشْهَدِ الْحَاضِرُونَ وَلْيُبَلِّغُوا الْعَائِلِينَ، أَنَّي قَبِلْتُ زَوْجَ بِنْتِ «عَمَرَ الصَّبَّاحِ» بِالْعَةِ مَا بَلَعْتَ مِنَ الدَّمَامَةِ وَالتَّشْوِيهِ، كَمَا قَبِلْتُ أَنْ أَدْفَعَ لَهُ — عَنْ طَيْبِ خَاطِرٍ — أَلْفَ دِينَارٍ ذَهَبًا مَهْرًا لَهَا وَأَلْفَ دِينَارٍ أُخْرَى إِذَا فَكَّرْتُ فِي فِرَاقِهَا، فَهَلْ يُرْضِيكَ هَذَا؟» فَقَالَ «الصَّبَّاحُ»: «الآنَ قَدْ هَدَأَ بَالِي، وَارْتَأَى خَاطِرِي وَأَطْمَأَنَّ صَمِيرِي. وَسَتَحْضُرُ إِلَيْكَ عَرُوسُكَ بَعْدَ قَلِيلٍ.»

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ «الصَّبَّاحُ» فِي الْإِنْصِرَافِ، كَمَا اسْتَأْذَنَهُ سَائِرُ الْحَاضِرِينَ. وَلَبِثَ «الْمُرَامِقُ» يَنْتَظِرُ عَرُوسَهُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، وَهُوَ يَعُدُّ الدَّقَائِقَ وَالثَّنَوَانِي، فَيَحْتَلُّ إِلَيْهِ أَنْ كُلَّ دَقِيقَةٍ تَمُرُّ كَأَنَّهَا يَوْمٌ، وَأَنَّ كُلَّ سَاعَةٍ تَنْقُضِي كَأَنَّهَا شَهْرٌ.

(١١) قُدُومُ الْعَرُوسِ

وَجَلَسَ «الْمُرَامِقُ» تَتَمَتُّلٌ لَهُ عَرُوسُهُ الَّتِي رَأَاهَا فِي الصَّبَّاحِ، وَيُصَوِّرُ لِنَفْسِهِ أَنَّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ سَيِّدَةً بَيْتَهُ وَشَرِيكَتَهُ فِي الْحَيَاةِ. وَيَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى أَنْ مَنَحَهُ — بَعْدَ الصَّبْرِ الطَّوِيلِ — فَتَاةً كَامِلَةً الْفَضْلِ، رَاجِحَةَ الْعَقْلِ، فَصِيحَةَ اللِّسَانِ، بَارِعَةَ الْبَيَانِ.

ثُمَّ أَمَرَ إِحْدَى جَوَارِي قَصْرِهِ أَنْ تُطَلِّقَ الْبَحُورَ فِي غُرْفَةِ الْإِسْتِقْبَالِ اخْتِفَاءً بِمَقْدِمِهَا. وَطَالَ بِهِ الْإِنْتِظَارُ فَأَرْسَلَ الزَّنَجِيَّ إِلَى بَيْتِ «الصَّبَّاحِ» لِيَسْتَحِثَّهُ (أَيُّ: لِيَتَعَجَّلَهُ) عَلَى الْإِسْرَاعِ، كَمَا اسْتَحَثَّهُ — أَمْسِ — عَلَى الْإِسْرَاعِ بِإِحْضَارِ الثِّيَابِ الَّتِي وَهَبَهَا لِلْأَمِيرِ «فَضْلِ اللَّهِ». وَبَعْدَ زَمَنِ يَسِيرٍ سَمِعَ الْحَاكِمُ جَلْبَنَةً (أَيُّ: أَصْوَاتًا) وَضَوْضَاءَ، وَرَأَى حَمَلًا يَحْمِلُ صُنْدُوقًا مِنَ الْخَشَبِ وَيَصْعَدُ بِهِ إِلَى غُرْفَةِ الْإِسْتِقْبَالِ، فَسَأَلَهُ الْحَاكِمُ مَدْهُوشًا: «مَاذَا تَحْمِلُ أَيُّهَا الرَّجُلُ؟»

فَوَضَعَ الْحَمَالُ الصُّنْدُوقَ أَمَامَهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَحْمِلُ عَرُوسَ مَوْلَايَ الْحَاكِمِ، فَإِذَا شِئْتُ — يَا سَيِّدِي — رَفَعْتُ السُّتْرَ عَنْهَا لِتَرَى الْعَرُوسَ الَّتِي اخْتَرْتَهَا وَفَضَلْتَهَا عَلَى نِسَاءِ الْمَدِينَةِ جَمِيعًا.»

(١٢) عَفْرِيَّتُ النَّهَارِ

وَلَا تَسَلُ عَنْ دَهْشَةِ «الْمُرَامِقِ» وَخَيْرَتِهِ وَدُعْرِهِ حِينَ رَفَعَ السُّتْرَ، فَرَأَى أَشْنَعَ مَا رَأَتْهُ عَيْنَانِ، وَأَفْبَحَ مَا سَمِعَتْ بِهِ أُذُنَانِ، وَأَبْصَرَ أَمَامَهُ طِفْلَةً عَجُوزًا، لَا يَزِيدُ طُولَهَا كُلُّهُ عَلَى مِثْرٍ، وَلَا يَقِلُّ طُولُ وَجْهِهَا وَحَدَهُ عَنْ نِصْفِ جِسْمِهَا، إِنَّ لَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ. وَقَدْ شَوَّهَ الْجَرْبُ وَجْهَهَا وَجِسْمَهَا أَشْنَعَ تَشْوِيهِ، فَغَارَتْ عَيْنَاهَا، وَظَهَرَ احْمِرَارُهُمَا، وَتَوَرَّمَ أَنْفُهَا، وَتَبَدَّى لَهَا فَمٌ تَمْسَاحٍ. مَا أَصْدَقَ مَنْ سَمَّاهَا: «عَفْرِيَّتَ النَّهَارِ».

(١٣) فَرَزَعُ «الْمُرَامِقِ»

وَهَالَ الْحَاكِمَ مَا رَأَى، فَلَمْ يَكْدُ يَصْدُقُ مَا تُبْصِرُهُ عَيْنَاهُ، فَاسْرَعَ بِإِسْدَالِ السُّتْرِ عَلَيْهَا، وَصَرَخَ فِي الْحَالِ قَائِلًا: «أَيُّ حَيَوَانٍ فَطِيعٍ هَذَا الَّذِي تَحْمِلُهُ إِلَيَّ؟ أَتَرَى عَرُوسِي لَا تُحِبُّ أَنْ تَتَسَلَّى بِغَيْرِ هَذَا الْمَخْلُوقِ الْعَجِيبِ؟»



فَقَالَ لَهُ الْحَمَّالُ: «كَلَّا، يَا سَيِّدِي. لَيْسَتْ هَذِهِ لُعْبَةٌ لِعَرُوسِكَ — كَمَا تَحَيَّلْتَ —
بَلْ هِيَ عَرُوسُكَ نَفْسُهَا، هِيَ بِنْتُ «الصَّبَّاحِ»، هِيَ «عَفْرِيَّتُ النَّهَارِ»، وَلَيْسَ لِلصَّبَّاحِ بِنْتُ
سِوَاهَا.»

فَصَاحَ «المَرَامِقُ» مُتَأَلِّمًا: «يَا لَلَّهِ، وَكَيْفَ يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَحَدٌ مِثْلَ هَذَا
الْحَيَوَانَ البِشْعِ، الَّذِي جَمَعَ مِنْ فُنُونِ التَّشْوِيهِ وَصُنُوفِ الدَّمَامَةِ مَا لَا يَدُورُ بِخَاطِرِ
إِنْسَانٍ.»



(١٤) وَالِدُ الْعَرُوسِ

وكان «الصبَّاغ» واثقاً من دهشة «المرامق» ونفورهِ (أي: تجافيه وتباعده) وفرعه، متى رأى عروسه رأى العين، فأقبل «الصبَّاغ» في أثر «عفرية النهار». ولم يكد «المرامق» يرى صهره حتى ثار ثائره (أي: اشتد غضبه)، وقال له وهو يكاد ينشق من الغيظ: «كيف تخدعني أيها الشقي وتستهين بغضبي؟ وكيف سولت (أي: زينت) لك نفسك أن تبعث إلي بهذا الحيوان الفظيع ثم تزعم أنه ابنتك؟ أما والله لئن أصررت (أي: أقمت ودمت) على عنادك وحبك ولم تبعث إلي بابنتك الحسنة التي رأيتها في هذا الصباح لأعدببك أشد العذاب، ولأذيقنك من ألوان الشقاء والتبريح ما لا قبل لأحد باحتماله.»

فقال له «الصبَّاغ»: «أتوسل إليك — يا مولاي — أن تخفف من غضبك علي، فليس لي بنتٌ غير هذه الشوهاء التي تراها. وقد أقسمت لك — من قبل — جهد إيماني: إن ابنتي غاية في الدمامة، وآية في القباحة، فلم تسمع إلي، وأبيت إلا الزواج بها؛ فأني لوم علي في ذلك؟ وتقول يا سيدي: إن ابنتي حصرت إليك في هذا الصباح، فكيف كان ذلك؟ كيف حصرت إليك وهي — كما ترى — مقعدة لا تستطيع السير؟»

(١٥) عَوْدَةُ الْعَرُوسِ

وَلَمَّا سَمِعَ «الْمُرَامِقُ» كَلَامَ «الصَّبَّاعِ» أَدْرَكَ نَيْشًا (أَي: بَعْدَ فَوَاتِ الْوَقْتِ) أَنَّ فِي الْأَمْرِ سِرًّا خَفِيًّا، وَعَرَفَ أَنَّ بَعْضَ خُصُومِهِ قَدْ ائْتَمَرَ بِهِ، فَلَمْ يَرِ حِيلَةً أُبْلَغَ مِنْ هَذِهِ لِإِنْتِقَامِ مِنْهُ، فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ مَلِيًّا، وَقَدْ كَادَ الْغَيْظُ يَقْتُلُهُ، ثُمَّ قَالَ لِلصَّبَّاعِ: «لَقَدْ نَفَذَ قَضَاءُ اللَّهِ، وَلَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فِي رَدِّ الْقَضَاءِ، وَدَفَعَ الْبَلَاءِ، فَارْجِعْ بَيْنَتِكَ إِلَى بَيْتِكَ، وَحَسْبُكَ مَا ظَفِرْتَ بِهِ مِنْ غُنْمٍ، وَمَا أَلْحَقْتَهُ بِي مِنْ غُرْمٍ.»

فَلَمْ يَنْبَسِ «الصَّبَّاعُ» بَيْنَتِ شَفَةِ (أَي: لَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ)، وَانصَرَفَ وَمَعَهُ الْحَمَالُ يَحْمِلُ ابْنَتَهُ «عَفْرِيَتَ النَّهَارِ» إِلَى بَيْتِهِ.



خاتمة القصة

(١) بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ

وَسُرْعَانَ مَا ذَاعَتْ قِصَّةُ «عَفْرِيتِ النَّهَارِ» فِي مَدِينَةِ «بَغْدَادَ»، وَظَلَّتْ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ فَكَاهَةَ النَّاسِ فِي أَحَادِيثِهِمْ وَأَسْمَارِهِمْ. وَقَدْ فَرِحَ الْأَهْلُونَ بِمَا أَصَابَ الْحَاكِمَ الَّذِي عَمَّ شَرُّهُ وَأَذَاهُ كُلِّ مَنْ أَوْقَعَهُ سُوءَ الْحَظِّ فِي شِرَاكِهِ.

وَمَا زَالَتْ قِصَّةُ «بِنْتِ الصَّبَاغِ» تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، حَتَّى سَمَا خَبَرُهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ، فَدَهَشَ لَهَا، وَأَعْجَبَ بِمَا فِيهَا مِنْ لُطْفِ الْحَيَلَةِ، وَبِرَاعَةِ الْوَسِيلَةِ. وَقَدْ كَشَفَتْ لَهُ تِلْكَ الْقِصَّةُ مَا كَانَ مَسْتَوْرًا عَنْهُ مِنْ أَخْلَاقِ «الْمُرَامِقِ»، وَأَزَاحَتْ لَهُ السُّتْرَ عَمَّا كَانَ يُخْفِيهِ مِنْ نَمِيمِ الْخِلَالِ (أَي: قَبِيحِ الصِّفَاتِ)، فَعَرَفَ عَنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ لَهُ عَلَى بَالٍ. وَمَا عَتَمَ الْخَلِيفَةُ (أَي: لَمْ يَلْبَثْ) أَنْ أَمَرَ بِاسْتِدْعَاءِ الْأَمِيرِ «فَضْلِ اللَّهِ» إِلَيْهِ. وَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ قِصَّتَهُ كُلَّهَا، وَحَزِنَ لِمَا لَقِيَهُ مِنْ جُهْدٍ وَعَنْتٍ (وَالْعَنْتُ: الْوُقُوعُ فِي أَمْرٍ شَاقٍّ).

(٢) عِتَابُ الْخَلِيفَةِ

ثُمَّ قَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ: «أَعَزُّ عَلَيَّ مَا لَقِيتَ — يَا ابْنَ أَخِي — مِنْ شِقَاءٍ وَبِلَاءٍ! وَلَيْسَ لِأَحَدٍ حَيَلَةٌ فِي رَدِّ مَا فَاتَ، عَلَى أَنْتَنِي لَا أَكْتُمُكَ مَا فِي نَفْسِي مِنْ عَتَبٍ عَلَيْكَ، لِتَهَاوُنِكَ فِي أَمْرِكَ، وَتَقْصِيرِكَ فِي لِقَائِي، فَقَدْ كَانَ أَوْلَ وَاجِبٍ عَلَيْكَ — مُنْذُ حَلَلْتَ «بَغْدَادَ» — أَنْ تُزَوِّدَنِي

بِنْتُ الصَّبَاغِ

لِتَهَيِّئِ لِي الْفُرْصَةَ لِتَكْرِيمِكَ وَالْحَفَاوَةَ بِكَ. وَلَسْتُ أُدْرِي: كَيْفَ يَخْجَلُ مِثْلَكَ مِمَّا يَزِيدِيهِ
مَنْ أَسْمَالٍ بِأَلِيَّةٍ؟

وَأَنْتِ تَعْلَمُ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يُكْرَمُ لِأَمَالِهِ وَثِيَابِهِ. وَهَلْ حَسَبْتِ أَنَّ فِي اسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ —
كَائِنًا مَنْ كَانَ — أَنْ يَدْفَعَ الْمَقْدُورَ؟ وَمَا أُدْرِي: كَيْفَ غَابَ عَنِّي فِطْنَتِكَ وَذِكَايِكَ مَا بَيَّنِّي
وَبَيَّنَّ أَيْبِكَ مِنْ صِلَاتِ الْمَوَدَّةِ وَالْإِحَاءِ؟»

فَشَكَرَ الْأَمِيرُ «فَضْلُ اللَّهِ» لِلْخَلِيفَةِ فَضْلَهُ وَحُسْنَ التَّفَاتِهِ وَكِرَمَ وَفَادَتِهِ. وَدَعَا لَهُ بِطُولِ
الْعُمُرِ وَرَاحَةِ الْبَالِ. وَأَنْسَاهُ مَا غَمَّرَهُ بِهِ مِنْ رِعَايَتِهِ كُلِّ مَا لَقِيَهُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْأَحْدَاثِ
فِي رِحْلَتِهِ. ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ بِفَيْضٍ (أَيُّ: كَثِيرٍ) مِنَ الْهَدَايَا وَالنَّفَائِسِ.

(٣) إِنْصَافٌ «الْمَوْفِقِ»

وَعَرَفَ الْخَلِيفَةُ لِلسَّيِّدِ «الْمَوْفِقِ» فَضْلَهُ الَّذِي أَوْعَرَ صَدْرَ حَضَمِيهِ (أَيُّ: مَلَأَهُ غَيْظًا)، وَأَعْرَاهُ
بِالْكَيْدِ لَهُ، وَاخْتَلَقَ الْأَكَاذِيبَ عَلَيْهِ، فَاسْتَدْعَاهُ إِلَيْهِ، وَأَدْنَاهُ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَرَفَعَهُ إِلَى أَعْلَى
مَنْصِبٍ، وَأَصْبَحَ لَهُ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — نَدِيمُهُ وَمُدَبِّرُهُ وَسَمِيرُهُ.

(٤) جَزَاءٌ «الْمُرَامِقِ»

وَفَكَرَ الْخَلِيفَةُ مَلِيًّا (أَيُّ: وَقْتًا طَوِيلًا) فِي أَمْرِ ذَلِكَ الْحَاكِمِ الدَّسَّاسِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا بَدَأَ بِهِ
عَزْلُهُ. ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُ عَلَى أَنْ يُعَاقِبَهُ عِقَابًا لَمْ يُعَاقَبْ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ، فَلَمْ يَرِ أْبْلَغَ — فِي إِيْذَانِهِ
وَالنَّكَايَةِ بِهِ وَتَنْغِيصِ عَيْشِهِ — مِنَ الْبَقَاءِ طُولَ حَيَاتِهِ مَعَ عَرُوسِهِ الْمُخْتَارَةِ: «عَفْرِيَّتِ
النَّهَارِ».

(٥) عَاقِبَةُ الْإِسَاءَةِ

وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُرَامِقِ — حِينَيْدٌ — بُدٌّ (أَيُّ: مَفْرٌ) مِنْ طَاعَةِ الْخَلِيفَةِ، فَفَضَى حَيَاتَهُ كُلَّهَا مَعَ
«بِنْتِ الصَّبَاغِ» مُعَذَّبًا مُنْغَصًّا (أَيُّ: مُكْدَّرًا)، دُونَ أَنْ يَجْرُؤَ عَلَى مُفَارَقَتِهَا وَالْخَلَاصِ مِنْهَا.
وَكَانَ ذَلِكَ — وَحْدَهُ — أْبْلَغَ انْتِقَامٍ وَقَعَ عَلَيْهِ، وَأَقْسَى عِقَابٍ حَلَّ بِهِ.